تصدير

أ. د. طه جابر العلواني

لقد شهد القرنان الماضيان كثيرًا من الجهود المعادية "للسان القرآن"، في محاولة لتهميش اللُّغة العربيّة، والدعوة إلى هجرها وتجاوزها، واعتبارها خالية من سائر المضامين المعرفيّة والحضاريّة، جعلت من الناطقين بها مجرّد "ظاهرة صوتيّة". وقد كثر الحديث في عصرنا هذا -عصر الرغبة في الإجهاز على بقايا موروث حضارتنا وثقافتنا- عن أنّ "لسان القرآن" لسان قومي، فلا حاجة إلى من لا ينتمي -إثنيًّا وعرقيًّا- إلى غير العرب أن يتعلَّم العربية، خاصَّة أنّها لا تُعَدّ -الآن- من اللغات الحيَّة، وأنها تعبير عن "عقل بيانيّ، لا برهانيّ"، فلا تصلح أن تكون "لغة علميّة" في عصر قائم على العلم، مستند في كل جوانبه إليه.

والعربيّ -نفسه- لا يحتاج إلى العربية بوصفها لغة حيَّة، بل لأنّها جزء من تراثه، له أن يتجاوزه، ويتجاوزها معه، وله أن يحتفظ به وبها إن شاء، على أن لا يفارقه اليقين بأنّه لن ينتفع بها في حياته، وإذا كان لا بدّ له من الاحتفاظ بشيء منها؛ فاللَّهجات العاميّة الهجين يمكن أن تغنيه عن مكابدة تعلُّم نحوها وصرفها وبلاغتها وبيانها وبديعها وما إلى ذلك ممّا عدُّوه تزيُّدًا لا معنى له، ولا حاجة إليه.

وأوّل المتضرّرين بتهميش "لسان القرآن" الإسلامُ والمسلمون ومنهم العرب؛ ذلك أن تهميش "لسان القرآن" أحدث قطيعة غير معلنة بين المسلمين

وتراثهم، وقد أدّى ذلك إلى انعدام "الإبداع"، وتراجع القدرات الفكريّة والاجتهاديّة، وسلوك سبيل التدهور الحضاريّ، والدخول في دوَّامة الأزمات الثقافيّة. وقد طُرحت مشاريع كثيرة لتجاوز تلك الأزمات لم يكن من دعائم الكثير منها -إن لم نقل كلّها- إحياء "لسان القرآن" واللُّغة العربيّة.

وقد تعرّضت الشعوب المسلمة غير العربيّة[1] إلى كثير من الضغوط لإحياء لغاتها الأصليّة، وإنعاشها، وتجاوز "لسان القرآن" واللغة العربيّة التي هِيَ ينبوع الثقافة الإسلاميّة، وذلك لعلمهم أن الوسيلة الأساسيّة التي تربط هذه الشعوب بالإسلام هِيَ "لسان القرآن"، فإذا سادت العُجْمة واختفى "لسان القرآن" أمكن -آنذاك- أن يقال إنّ رسولَ الله (والقرآنَ الَّذي أُنزل عليه، كل منهما كان خاصًّا بالعرب. فالرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- عربيّ أُرسل إلى العرب، والقرآنُ الكريم عربيّ أُنزل بلغة العرب؛ فالإسلام -إذن- رسالة عربيّة قوميّة، لا رسالة عالميّة وجهت خطابها إلى البشر كافة ليتلقوا الخطاب ويستجيبوا لله وللرسول، فيعتنقها الهنديّ والكرديّ والتركيّ والفارسيّ والبربري، والملاوي، إضافة إلى غيرهم من شعوب الأرض المدعوين بهذا الخطاب إلى اعتناقها؛ فإذا حُصرت الدعوة بالعرب، فلا يحتاج غيرهم إلى الإسلام والقرآن، لأنّ خطابها موجَّه إلى العرب وخاصٌّ بهم. إنّ "العربيّة لسان" كما في الأثر[2]، إنّ اللِّسان هُوَ "لسان القرآن"، وإنّه لا يمكن لهذه الأمّة أن تعي ذاتها، وترمم بنيانها، وتعيد بناء وحدتها، وتستردّ فاعليّتها

(1) كما فعل أتاتورك في تركيا. بل إن هناك دولًا عربية استطاع المستعمر أن يفرض عليها لغته، فوجدت نفسها بعد الاحتلال لا تستطيع أن تفهم اللّغة العربية القوميّة كما حدث في الجزائر وتونس، ونجح الغزو الثقافيّ في البلاد الأخرى في أن يجردوها من العربية ويجعلوا العامية هِيَ السائدة في تعاملات الناس، وبهذا يسهل إبعاد المسلمين العرب عن دينهم ولغتهم كما هُوَ الحال. انظر كتاب "مشكلات في طريق الحياة الإسلامية" للغزالي.

(2) روى أَحْمَد في المسند عن سعد بن سهل -رضي الله عنه- أن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ- قال: "اللهم لا يدركني زمان أو لا تدركوا زمانًا لا يتبع فيه العليم، ولا يُستحي فيه من الحليم، قلوبهم قلوب الأعاجم وألسنتهم ألسنة العرب". انظر:
- الشيباني، أحمد بن حنبل. مسند أحمد. تحقيق: شعيب الأرناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط2، 1999م، ص518، حديث رقم 22879).

الفكريّة والإبداعيّة، وتشق طريقها نحو النهوض من دون إحياء روابطها "بلسان القرآن"، وربط سائر لغاتها به، سواء أكانت لغة كتابة، أم لغة تشريع وفقه وقانون، أم لغة فلسفة، أم اقتصاد، أم اجتماع، أم سياسة، أم طب، أم هندسة؛ فالأمّة التي لا تفكر بلغتها، ولا تتعامل مع العلم بلسانها لا يمكنها أن تعالج أزماتها الفكريّة والمعرفيّة والحضاريّة، أو تتبنى لنفسها مشروعًا حضاريًا، أو تشق طريقها إلى النهوض.

إنّ "لسان القرآن" يُخرج اللفظ عن كونه مجرّد لفظ؛ لأنّه يحمِّل اللفظ طاقات دلاليّة لم يعهدها أحد في تلك الألفاظ قبل نطق القرآن بها، فهو يفرِّغها ويملؤها، ويمنحها معاني، ودلالات ما كان لشاعرٍ أو ناثرٍ أو مجموعة كبيرة أو صغيرة من أساطين العربيّة أن تمنحها تلك الدلالات.

ومن هنا احتار اللِّسانيّون المحدَثون فيها، فهي ليست أصواتًا مقطَّعة كما يقول ابن جنيّ (ت 392هـ)[3]، وهي ليست مجرد "اختلاف تركيبات المقاطع الصوتيّة"[4] التي تفضي إلى "الدلائل الكلاميّة، والعبارات اللغويّة"[5] كما عبّر عن ذلك الآمدي (ت 613هـ).

"فلسان القرآن" أمر آخر فوق ذلك كلِّه، فلا يمسُّه اللسانيُّون، ولا يستطيعون العروج إلى عليائه لا بالتحليل ولا بالتفكيك، ولا بمناهج اللِّسانيّات، ولا بمناهج السيمائيّات؛ لأنّ هناك شيئًا قد غفل عنه هؤلاء كلُّهم، وهو الفرق بين الخطاب حين يكون إلهيًّا والخطاب البشريّ؛ فسوّوا بذلك بين خطاب ربِّ الأرباب وخطاب ابن التراب؛ فضلُّوا وأضلُّوا كثيرًا.

و"لسان القرآن" -بما يحمله من خصائص- قادر على منح العربيّة طاقات الحياة والخلود، واستيعاب معطيات "العمران والشهود الحضاريّ

---

(3) ابن جني، أبو الفتح عثمان. الخصائص. تحقيق: محمد علي النجار، بيروت: دار الهدى للطباعة، ط2، (د.ت.)، ج1، ص33.

(4) الآمدي، علي بن محمد. الإحكام في أصول الأحكام. تعليق: عبد الرزاق عفيفي، (د.م.): المكتب الإسلامي، (د.ت.)، ج1، ص13.

(5) المرجع السابق، ح1، ص13.

obeikan.com

والاستخلاف". والتراجع الذي يبدو -اليوم- عليها هُوَ انعكاس لتراجع وتخلّف حملتها، والناطقين بها؛ الذين صاروا بعد مرحلة التراجع الحضاريّ يعانون مركب نقص، وجراحات نفسيّة عميقة؛ أفقدتهم الثقة بأنفسهم وتراثهم ولغتهم وثقافتهم وحضارتهم، فتحولوا إلى متسولين يقفون على أبواب "الأنساق الثقافيّة" الأخرى موقف تبعيَّة ذليلة مقلّدة!.

إن اللُّغة أمر شديد الأهميّة كبير الخطر، بالغ الأثر في حياة الإنسان، لا يجهل أهميتّه ولا يقلِّل منها إلا إنسان فاقد للمعرفة، جاهل بحقيقتها، متجاهل لماهية الإنسان وحقيقته، غير مدرك أن الله -تبارك وتعالى- يسَّر للإنسان لكُنْهِ ذاته -فضلا منه ورحمةً- مَا جعله "ناطقًا"، وهذه "الناطقيّة" تُمثِّل الحقيقة الإنسانيّة فيه. وقد امتنّ الله -تعالى- عليه بأن علَّمه أوّلَ ما علّمه "الأسماء" كلّها[6]، وبعلمه بها تميَّز من الملائكة، وصار الأجدرَ بالخلافة في الأرض، والأحقَّ بأن يُستخلف فيها، يقوم على عمرانها، واستثمار ما فيها، واستخراج كنوزها، ثمّ ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: 4] للإفصاح عمّا يريد، وللتفاهم مع بني جنسه.

وعلاقة اللّغة بإنسانيّة الإنسان وبعقله وفكره ومعرفته وعلمه وحياته وهُويتّه وإنسانيّته علاقة عضويّة فطريّة لا يمكن تصوّر حقيقة الإنسانيَّة من دونها.

"... ولقد شغلت المسألة اللُّغويّة المفكّرين والفلاسفة منذ القدم فانشغل بذلك سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس وأرسطو وغيرهم... "[7]. ولم يكن انشغال فلاسفة المسلمين بأقل من ذلك، أمثال الكندي (ت 252)، والفارابي (ت 339)، وابن سينا (ت 428)، فضلاً عن أئمة الأصول والفقه والتفسير واللُّغات، ولم يتوقف الاهتمام بها، أو بجوانب ذات صلة بها منذ

---

(6) انظر الكتاب القيّم التالي في حكمة تعليم آدم الأسماء:
- الدمرداش، محمود فرج. وعلم آدم الأسماء كلها. القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1417هـ/ 1996م.

(7) مرتاض، عبد الملك. في نظريّة الرواية (عالم المعرفة العدد 240). الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ديسمبر 1998.

القدم حتى يومنا هذا. وكُتب الطبقات والتراجم حافلة بأسماء العلماء الذين شُغلوا بهذه المسألة أو بجوانب منها، مثل: "بغية الوعاة في طبقات النحاة" و"طبقات النحويّن واللغويّين"، و"طبقات المفسِّرين" وما إليها، ولم يتوقف الاهتمام بها في أيّ عصر من العصور.

وقد كان للعرب -مثل غيرهم من الأمم- لسان، وكانت لهم لغات نابعة من ذلك اللِّسان، واختار البارئ -جلّ شأنه- أن يكون للقرآن لسانه الخاصُّ ليتصل باللِّسان العربيّ كما يشاء، وينفصل عنه عندما يريد، ويهيمن عليه في سائر الأحوال. وما التحدي والإعجاز -خاصّة- بالنظم والأسلوب والبلاغة والفصاحة إلا بعض مظاهر هذا الانفصال عن لسان العرب.

وإذ لم يكتشف اللسانيّون الفرق بين اللّغة واللّسان إلا في القرن الميلادي التاسع عشر فإنّ القرآن المجيد قد نبّه على ذلك الفرق الدقيق في تن-زيله، وفهم العرب ذلك عنه، فصاروا يقولون: اللسان العربيّ، ولسان القرآن، ولغة هذيل، ولغة قريش، ولغة الشافعيّ (ت 204)... إلخ[(8)].

وهذا الكتاب الذي نقدم له من أهم ما قرأت في تحدي القرآن الكريم بلغته ولسانه، منذ أن نشر الرافعي كتابه "تحت راية القرآن الكريم"، وإذا

---

(8) والفرق بين اللسان واللغة هو أن اللغة قد يُتوصل إلى فهمها من غير لسان، فالإشارة لغة، والكتابة لغة، بل إنّ أيّ شيء يصدر عنه صوت فهو لغة، ومن ذلك سُمّي صوت الطائر "لغة"، قال تعالى: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: 41]، فسمّى الله تعالى الرمز والإشارة كلامًا، وكذا الرسوم والتصاوير فإنها معبّرة وحاكية، ولكنّها ليست ناطقة، فلا يقال لها "ألسن". واللغة عادة تكون حبيسة عادات وموروثات إقليمية، إلا أن الإنسان أعمّ منها؛ فهو أوسع تعبيرًا بدليل أن اللسان الواحد يستطيع أن يتكلم أكثر من لغة. وهذا يتضح من كلام الله تعالى: (﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: 195]، ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ [مريم: 97]. فالبيان والتيسير فيهما معنى الشمول والكمال بهذا اللسان الذي سوف يهيمن على اللغات كلها، وترغب فيه الألسنة جميعها. قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الأحقاف: 12]؛ أي: مصدق على ما قبله وعلى ما بعده. واللسان هو: الجارحة، والكلمة، والفصاحة، والنطق، والمقالة، والرسالة، وقد يُطلق اللسان ويُراد به اللغة كما في قوله تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الروم: 22]؛ أي: اللغات، واللهجات، والنغمات. يقول الراغب =

أردنا الدقة والإنصاف فإنه يمتاز على ما كتب الرافعي ومن جاء بعده بمزايا عديدة، ولا أجد فيما اطلعت عليه من دراسات في مجالات التحدي والإعجاز كتابًا يجاريه ويقترب منه، بعدما كتب الكاتبون في أواخر القرن التاسع عشر والقرن الماضي في الإعجاز والتحدي اللغوي ما كتبوه، وذلك عند بداية احتكاكنا في الغرب، سواء اعتبرنا هذه البداية بدخول نابليون مصر عام 1798م أو انتهاء خلافة آل عثمان وتقسيم العالم الإسلامي، أو ما كان بمثابة الإرهاصات والمقدمات في تغيير التنظيمات والقوانين التي كانت بداياتها قبل ذلك بكثير، أو إذا نظرنا بروز الاستشراق الذي مهد للاستتباع منا وللاستضعاف لنا من ناحية الغرب.

لقد شعر علماؤنا في مراحل مختلفة من تلك المحطات التي أشرنا إليها، بضروروة مواجهة التحديات التي أثارها الاستشراق حول القرآن الكريم في تلك المراحل كلها، فنال من الوحي، وأحيا المذاهب الميتة في القول (بالصرفة)، وحاول استحضار تلك المطاعن التي جمعها القاضي أبو بكر الباقلاني في كتابه الخطير "الانتصار لنقل القرآن الكريم"؛ إذ أورد الباقلاني (ت 415هـ) سائر المطاعن التي ظهرت في عصره أو قبله. لقد كتب كثيرون في الرد على كل ما أُثير حول القرآن الكريم وتحديه وإعجازه، ومكمن ذلك الإعجاز؛ فكتب رشيد رضا "الوحي المحمدي"، وكتب الشيخ حسين الجسر قبله رسالته الشهيرة "الحصون الحميدية"، وكتب ولده مفتي طرابلس ولبنان الشمالي الأسبق الشيخ نديم الجسر "قصة الإيمان". وحين كتب طه حسين كتابه "في الأدب الجاهلي" فجّر الكوامن، ورفع قضية الجدل في القرآن

= الأصفهاني: "فإن لكل إنسان نغمة مخصوصة يميزها السمع، كما أن له صورة مخصوصة يميزها البصر". (الأصفهاني، عماد الدين الكاتب. مفردات غريب القرآن. تحقيق: محمد سيد كيلاني، بيروت: دار المعرفة، (د.ت.)، ص450).

واللغة كما في اللسان: أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم. أمّا اللسان فصاحب ذلك التعبير وبريده والدال عليه ويستطيع أن يصيغ اللغة في أكثر من عبارة بمعان مختلفة. بل قد يكون المنشأ واحدًا واللغة واحدة واللسان كذلك في الأصل، لكنّه يختلف في البيان والإفصاح، قال تعالى: ﴿وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ [القصص: 34].

وحوله إلى أعلى المستويات، وصدرت ردود كثيرة عليه، وكان هناك ما يشبه الإعادة والإحياء لقضية "خلق القرآن" في هذا الأمر. ثم جاء بعده محمد أحمد خلف الله فكتب رسالته التي تُعدّ خطوة إضافية على الطريق الذي بدأه طه حسين، وتصدى له من تصدى، وامتلأت المكتبات بالردود والتعليقات وكتب المناقشات، التي دارت حول القرآن الكريم ولسانه وتحديه وإعجازه وما إلى ذلك.

والدكتور أحمد بسام ساعي يأتي اليوم بهذا السفر الجليل، يتناول موضوع الإعجاز اللغوي تناولًا غضًّا دقيقًا، يتجاوز تناولات كثير من المتقدمين، ويستوعب تناولات عدد كبير من المتأخرين، ليقف عندي في صف واحد مع سلسلة الجهود التي قام بها الراحل الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابيه: "المدخل إلى القرآن الكريم"، و"النبأ العظيم"، ثم سلسلة دراسات الدكتور محمد فاضل السامرائي الذي أَعَدّ عشرة كتب في هذا المجال، تتضافر كلها لإثبات هذا الإعجاز من نواحٍ يغلب أن تكون بيانية، ولعل أهمها وأقربها إلى ما نحن فيه كتابه "التعبير القُرآني"، وكتابه "لمسات بيانية". لكنّ كتاب الدكتور أحمد بسام ساعي -كما قلت- يكاد يقف وحيدًا في مجال تفرده بإعادة قراءة الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، وبذا فقد تجاوز بنا عملية حصر الإعجاز في ما بين ثلاثة إلى خمسة أوجه، كما كان الحال مع المتقدمين، أو ما يبلغ بها ثمانية أوجه عند بعض المتأخرين، أمثال: رشيد رضا، وابن عاشور، ومحمد الغزالي، ومن إليهم، يرحمهم الله.

إن كتاب الدكتور ساعي يؤسس لنظرية أعلنّا عنها منذ مدّة عن اللسان العربي واختلافه عندما يتكلم به الله -جلّ شأنه- ويختاره لسانًا يحمل خطابه إلى عباده، واختلافه عن اللسان العربي حين يتحدث به أهل اللسان من البشر. فيبدو الفارق بين الاثنين صريحًا جليًّا بحيث لا يمكن أن نقارن بين اللسان والله يتحدث به إلى عباده ويخاطبهم به، واللسان حين يُخاطِب البشر به بعضهم بعضًا. فهناك اختلاف كبير جدًا بين هذا وذاك، لذلك فإن الدكتور أحمد بسام ساعي انطلق في إعداد سفره الجليل هذا من قناعة وصل إليها، تتصل بنظريتنا هذه؛ مفادها أن للقرآن لغته واستعمالاته الخاصة التي تختلف

عن استعمالاتنا البشرية الرسمية منها واليومية. ويبين أن هذه النظرية، نظرية حقيقية جديرة بأن تكون تفسيرًا لذلك التفوق القرآني على اللسان العربي كله، فكأنه لسان مغاير لكنه يتصل وينفصل؛ فهو يتصل بكثير من الجذور اللُّغوية، ولكنه ينفصل عنها ليكون بيانًا ومبينًا وخطابًا يتصف بكل تلك الصفات التي تتجاوز أربعًا وخمسين صفة واسمًا، وصف القرآن نفسه بها. فالقرآن الكريم يبشر وينذر في آن واحد، يفتح القلوب المغلقة، والآذان الصماء والأعين العمياء على الهدى والنور، فيعظ ويبشر ويذكر، ويبين ويجادل ويحاور، ويقوم بعمليات يتعذر إحصاؤها، في حين يقف اللسان العربي حين يستخدمه البشر عند حدود معينة.

اللسان القرآني حين يشتبك مع قوى الوعي الإنساني، يستثيرها كلها ويعمل على دفعها لقبول خطابه والإيمان به، ولا نجد مثل ذلك ولا قريبًا منه في أيّ خطاب عربي آخر. اللسان القرآني يتعامل مع فطرة الناس ووجدانهم، فيكون لبعضهم هدىً وشفاءً، ويكون لبعضهم الآخر عمىً ومرضًا، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء: 82] وتحدي القرآن الكريم للعرب أن يأتوا بمثله، ثم تن-زله إلى عشر سور مفتريات، ثم إلى سورة واحدة من دون تحديد لطول أو قصر، وظهور عجزهم مع كل ما لديهم من الدوافع للقيام بذلك، ومع وجود الأدوات اللغوية لديهم ومعرفتهم بها، لكنّهم عجزوا عن ذلك، وأعيا بلغاءهم وفصحاءهم أن يأتوا بمثل سورة منه. وهنا أمر رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يعلن نتيجة التحدي في قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ﴾ [الإسراء: 88] وانتهى التحدي إلى استسلام المشركين وإخلائهم هذه الساحة، واعتراف بعض من أنصف منهم بأنه ليس بكلام بشر، وإلا لتمكنوا -فرادى أو مجتمعين- من الاستجابة لتحديه، والتغالب معه، والوصول إلى علاج لأزمتهم مع القرآن وحامل القرآن. وبقي القرآن يتحدى سائر الأجيال التي ترى أن هذا الخطاب القرآني لم يستطع الزمان أن يقيده بقوله: إنَّه صالح مدّة زمنية محددة، ولا تمكنت الجغرافيا أن تقيده قائلة: إنَّه خطاب لقريش، أو للقبائل السبع التي كانت تحيط بمكة، لأنَّ هذا الخطاب

obeikan.com

كان منذ انطلاقته الأولى خطابًا عالميًا لا يمكن إلا أن يتخذ تلك الوجهة العالمية.

وبعد. . . فإن هذا السفر الجليل من الصعب على كاتب المقدمة أن يقدم له في الحدود التي طلب أن لا تتجاوز عشر صفحات؛ إذ إن كل قضية من قضايا الكتاب، ولا سيّما قضيته الأساسية، تتطلب حيزًا غير متاح.

إنّ هذا الكتاب قد أبرز وجهًا من وجوه التحدي القرآني لجميع الخلق أن يأتوا بمثله، وهو الإعجاز التجديدي، وكنت أتمنى أن يُسمّى بـ"التحدي التجديدي"؛ فالكتاب أثبت أن لسان القرآن قد ارتقى باللغة العربية، وجدّد فيها كل شيء تقريبًا (الألفاظ، الأساليب، السياقات، الجمل، التعبيرات، الصور، القواعد، المآلات)؛ كيف يكون اللسان بيانًا؟ وكيف يكون اللسان خطابًا؟ وكيف يستوعب كل أنواع التصوير الفني ليجدّد بها اللغة العربية، فتصبح قادرة على أن تكون لسانًا له معبّرًا عن الرسالة، ومبلّغًا للخطاب المليء بالدلالات بأمانة، بحيث يستطيع أن يعبّر بالمكنون في آياته وبالسياق وبالحذف والتقدير، ليشتبك مع ذهن القارئ، وعقل التالي، وقوى وعي السامع، ويفرض عليها حوارًا جادًا يؤدي في النهاية إلى الخروج من الظلمات إلى النور، أو إلى الارتكاس بالإخلاد إلى الأرض، واتباع الهوى والإعراض عن الذكر؟ إنه كتاب يصلح أن يكون مرجعًا في دراسات التفسير وعلوم القرآن، ومرجعًا في قضايا البلاغة والفصاحة والأدب، بحيث تستفيد منه كل تلك الفئات التي اضطر الكاتب إلى تجاوزها والانفلات من قيودها التي لم تُبنَ على لسان القرآن؛ من: اللغويين، والنحويين، والبلاغيين، والمفسرين. فهؤلاء كافة يستطيعون الاستفادة من هذا الكتاب، والاطلاع فيه على الفروق الدقيقة بين لسان القرآن واللسان العربي، قبل تجديد القرآن لهذه اللغة وبعد ذلك.

جزى الله أخانا الدكتور أحمد بسام ساعي كل خير، ووفقه لمواصلة الجهود في خدمة القرآن ولسانه، وإبراز جوانب بلاغته وفصاحته، التي تحتاج إلى مثل فكر الدكتور أحمد وخبراته وتجاربه وتخصصه الدقيق هذا، وفقه الله لما يحبه ويرضاه، ونفع به وجزاه الله خيرًا.

obeikan.com

تمهيد

كانت البداية عام 1989 حين طلب منّي مركز أوكسفورد للدراسات الإسلاميّة إلقاء محاضراتٍ على الطلبة البريطانيين الساعين إلى فهم اللغة العربيّة من خلال القرآن الكريم. وكانت تجربةً فريدةً لي وأنا أحاول أن أترجم لتلامذتي معاني القرآن إلى اللغة الإنجليزيّة ثمّ أتلقّى أسئلتهم اللغويّة المحيّرة التي تجرّك بعيداً عن حدود أيّة تقاليد أو أعرافٍ ألِفَها المفسّرون واللغويّون.

وصادف أنني كنت أعمل ذلك الحين في تحقيق كتابٍ أندلسيٍّ مع مستشرقٍ بريطانيٍّ صديقٍ في كلّية الدراسات الشرقيّة بجامعة أوكسفورد، فسألني يوماً: هل نقول (ما زال) أم (لا زال)؟ وأجبته ببساطةٍ: بل (ما زال) ولكنّه أصرّ على (لا زال) وأصررت على (ما زال).

وكانت حجّتي أنّ (لا) ستكون دعائيّةً هنا، كقولنا: لا زالت ديارُكم عامرةً بالأفراح، ومنها قول الشاعر: «ولا زال مُنْهلّاً بجَرعائكِ القَطْرُ»، ولكنّه فاجأني بقوله: إنّ القرآن لم يستخدم (ما) مع (زال) قطّ، بل اقتصر على (لا) وفي غير الدعاء.

وجمتُ للحظةٍ، ثمّ تمالكت نفسي وعدت لأفاجئه بهذا السؤال: كيف تترجم الفعل (كان) إلى الإنجليزيّة؟ ولم يتردّد في أن يجيب: *was* فقلت: إذن ترجمْ لي هذه الجملة القرآنيّة: ﴿وكان اللهُ غفوراً رحيما﴾ وأجابني حالاً: *And Allah Is Oft-Forgiving Most Merciful* فسألته: أين الفعل (كان) في هذه الترجمة؟ ولم يُحِر جواباً، إذ لم يجد أمامه إلّا *Is* وهي بمعنى (يكون) أو (إنّ)؛ وليس بمعنى (كان). وامتدّ النقاش حتّى وصلت به إلى هذه النتيجة: إنّ للقرآن لغته واستعمالاته الخاصّة التي تختلف عن استعمالاتنا البشريّة، الرسميّة منها واليوميّة.

"إعجازٌ" أم مجرّد عبقريّة؟

هذه "المواجهات" الفكريّة مع "الآخر" في العالم الغربيّ كانت بمثابة الشرارات الأولى التي أضاءت لي سبل التفكير الجدّي بإعادة النظر في قراءتي العاديّة للقرآن الكريم، تلك القراءة التقليديّة التي لم تكن تخلو أصلاً، فيما أرجو، من استيعابٍ وخشوع، ولكنّها لا تخلو أيضاً من التأثير الخطير للأُلْفة والتكرار اليوميّ، وهما اللذان يحجبان عنّا كثيراً ممّا أحسّه وأدركه العربيّ الأوّل حين كان يلتقط الآيات الأولى تتنزّل تباعاً على رسول الله ﷺ فتهزّه جِدّتها، ويحيّره نظامها وقد وجد فيه شيئاً مختلفاً عمّا أَلِفه من أساليب، فتنقلب هذه الحيرة وتلك الهزّة في نفسه تساؤلاً مصيريّاً: ما الذي يحدث من حولي؟ إنّ الأمر أبعد وأخطر من أن يكون مجرّد أسلوبٍ متميّزٍ آخر لكاتبٍ ناشئٍ أو شاعرٍ صاعدٍ أو كاهنٍ مدّعٍ.

ويجب أن أعترف بأنّني كنت في المرحلة الأولى من حياتي أؤمن بالإعجاز اللغويّ للقرآن إيماناً راسخاً، ولكن بوصفي مسلماً فحسب؛ إذ لم أكن في الحقيقة قادراً على إدراك هذا الإعجاز بعقلي، وتمييزه ووضع أصابعي عليه بوسائل بحثي البدائيّة.

لقد كنت أرى في لغة القرآن الكريم جمالاً أخّاذاً، وفصاحةً متناهية، ودقّة تعبير، وبلاغةً وإيقاعاً وسحراً وتميّزاً، ولكنّني لم أكن أدرك أنّ هذه الصفات جميعاً شيءٌ، وأنّ الإعجاز اللغويّ شيءٌ آخر أعمق سبراً، وأمنع وصولاً، وأعظم خفاءً، وأشدّ استحالةً على البشر.

كنت أمنّي النفس دائماً بأنّني سأكون، بعد أن أصل إلى مرحلةٍ ثقافيّةٍ أفهم معها البلاغة العربيّة جيّداً، أكثر قدرةً على اكتشاف الإعجاز القرآنيّ الذي لم يستطع أيٌّ من كتب السابقين إقناعي بعدُ، على نحو علميٍّ غير قابلٍ للدحض، بوجوده في القرآن الكريم.

نعم لقد وضعوا لفظ (الإعجاز) في عناوين كتبهم، ولكنهم لم يتحدّثوا إلّا عن البلاغة والروعة والجمال والدقّة في التعبير، وهذه كلّها صفاتٌ قد نجدها، على تفاوت، في آداب البشر أيضاً مهما اختلفت لغاتهم وأجناسهم.

obeikan.com

فكم هناك من عباقرةٍ وأقلامٍ وألسنةٍ وعقولٍ سحرت العالم بإبداعاتها، وحيّرت النفوس بفنّها، فكان أن وُصِفت بكلّ صفةٍ، ولكن ليس بصفة الإعجاز.

لماذا نصرّ إذن على أن نخصّ القرآن الكريم وحده بهذه الصفة؟ وأين هو الإعجاز فيه إذا كان تعريف الإعجاز حقّاً هو: ما لا يقدر عليه بشر، أيّ بشر؟ نعم، قد يكون في هذه الجوانب مجتمعةً ما يصبّ في النهاية في بحر الإعجاز، فيعمّقه ويوسّعه ويخصبه ويغنيه، ولكنّه لن يكون وحده كافياً، على نحو علميٍّ قاطع، في عصرٍ لم يعد يؤمن إلّا بالأرقام، لتشكيل ذلك المحيط الضخم الذي نسعى لاكتشافه.

وفي مرحلةٍ تاليةٍ من حياتي اللغويّة، وقد تخرّجت من قسم اللغة العربيّة، واجهني السؤالُ نفسه، ووجدت الجوابَ ما يزال هو نفسه.

ثمّ حصلت على الماجستير ثمّ الدكتوراه في الأدب العربيّ، ووجدتُني مرّةً أخرى، وأؤكّد على الاعتراف، عاجزاً عن رؤية الإعجاز اللغويّ في القرآن، بوصفي، أو بالرغم من أنّني، أصبحت، في نظر نفسي على الأقلّ، باحثاً وناقداً أدبيّاً متمرّساً بفنون اللغة والأدب!

وأعترف أنّني، في عمليّة البحث المستمرّة عن الإعجاز المفقود، كنت أواجه دائماً هذه المعضلة المنهجيّة الشاقّة: كيف أوفّق في داخلي بين المسلم والباحث، أو بتعبيرٍ أكثر بساطةً: بين العاطفة الدينيّة، القابلة للأخذ والردّ، والمؤمنة بالإعجاز بالولادة، تماماً كإيمانها المطلق بالإسلام وبكتابه، وبين التحليل العلميّ المجرّد الذي لا يُردّ، الذي لا تتدخّل في أحكامه عاطفةٌ أو إيمانٌ أو اجتهادٌ فرديٌّ أو رأيٌ جاهزٌ مسبق الصنع؟

وسألت نفسي: هل أقول مع من قال: "إنّ فكرة الإعجاز عقيدةٌ دينيّة لا يمكن أن يؤيّدها برهانٌ عقليٌّ أو حسّيٌّ حاسمٌ يكون له قوّة البرهان الرياضيّ"[1] فأستسلم بهذا لعواطفي الدينيّة وأنا أصدر أحكامي، وأستند إلى

---

(1) الحمصي، نعيم. **مجلّة المجمع العلمي العربيّ** بدمشق، 30، 308.

آراء السابقين، وآراء اللاحقين أيضاً، فلا أُقنع بأبحاثي في النهاية إلّا نفسي، هذا إذا أفلحت حقّا في التوصّل إلى إقناعها؟

أم أطرح هذه العواطف وتلك الآراء القديمة، والجديدة أيضاً، جانباً، وأتناول أدواتي العلميّة المخبريّة التي أستطيع بها أن أخاطب "الآخر" داخل نفسي، بثقةٍ وتجرّدٍ هذه المرّة، وأنا أُسلّط المُجهِر على الوجه الإعجازيّ غير المنظور للقرآن الذي "لا تنقضي عجائبه" كما يؤكّد من حمل إلينا مِن ربِّه نصوصَ ذلك الكتاب الخالد؟

هل كان يكفيني أن أتلمّس بروحي جمال التعبير القرآنيّ وبلاغته وتميّزه حتّى أقول إنّه معجزة؟ وأين تتوقّف حدود البلاغة والجمال، وهي حدودٌ زئبقيّةٌ ونسبيّةٌ وغير نهائيّةٍ مهما فلسفنا نظريّاتنا في رسم هذه الحدود، لنبدأ في الدخول إلى أرض الإعجاز؟

وأؤكّد من جديد: لقد أُسبِغت صفات البلاغة والفصاحة والجمال، وما تزال تُسبغ، على أعمال عديدٍ من الأدباء والشعراء والفنّانين العباقرة، العرب وغير العرب، وعلى مرّ العصور، من غير أن يَحدث فيُنسَب الإعجاز لأيٍّ منهم.

أين تتوقّف حدود العبقريّة، الهلاميّة وغير القابلة للإمساك، لتبدأ حدود الإعجاز المطلق الذي لا نقاش فيه ولا تردّد، لأنّه يستند إلى الحقائق العلميّة، ويتحدّث بلغة الأرقام، ويتجاوز تخوم العبقريّة ومنعرجاتها وتلالَها ووهادها، وهي لا تفتأ صاعدةً هابطةً في إبداعات أصحابها الأدبيّة والفنّية مهما بلغت درجة عبقريّتهم، فلا تتسرّب إلى أحكامنا الميولُ والعواطف، ولا تنطلق تلك الأحكام من الأذواق الشخصيّة أو المواقف الإنسانيّة المتأرجحة مدّاً وجزراً، ولا تصدر عن الترجيحات والاحتمالات والتوقّعات البشريّة القاصرة والمتبدّلة في أحكامها مع الزمن؟

كان هذا كلّه قبل أن أشرع في الدخول إلى المرحلة الثالثة من سنّي العلميّة، ومواجهة السؤال الملحّ والمحيّر، ومن ثمّ التوصّل إلى إجابةٍ نهائيّةٍ عنه: أين الإعجاز في لغة القرآن الكريم، الإعجاز بمعنى الكلمة الحقيقيّ، وليس العبقريّة والفصاحة والتميّز والدقّة والجمال؟

تُرى هل فقدت كلمة (إعجاز) في معاجم أذهاننا اللغويّة معناها الأصلي (وهو: الأمر الذي يستحيل صنعُه أو الإتيان بمثله) وتراجعت إلى معنىً اصطلاحيٍّ جديدٍ فقدت ذاكرتُنا معه الاعتراف بالمعنى الأوّل، فلم تعد تعني عندنا أكثر من: المتفوّق أو المتميّز أو العبقريّ؟

ما الإعجاز عند القدماء؟

لقد درس القدماء والمحدَثون بدأبٍ وغزارةٍ جوانب عديدةً ممّا سمّوه الإعجاز القرآنيّ، أستطيع أن أحصرها فيما لا يزيد على ثلاثة جوانب:

1 - **الجانب الجماليّ أو البلاغيّ**: وهو يتّجه إلى إثبات أنّ القرآن الكريم معجزةٌ جمالية في لغته ونظمه. وكان من أوائل من كتبوا في هذا المعنى الجاحظ والرمّاني والواسطيّ وأبو زيد البلخيّ وأبو هلال العسكريّ والخطّابيّ والباقلّانيّ والقاضي عبد الجبّار الأسدآبادي وعبد القاهر الجرجانيّ وابن أبي الإصبع وابن قيّم الجوزيّة وغيرهم.

ولكنّ الجمال يبقى دائماً مسألةً نسبيّةً قابلةً للنقاش وعرضةً للتغيّر من فردٍ إلى فرد، ومن مجتمعٍ إلى مجتمع، ومن زمنٍ إلى زمن، وما هو جميلٌ في عيني ربّما لا يكون جميلاً في عيون الآخرين، بل ربّما لا يكون جميلاً في عيني أنا بعد حين، مهما حاولت أن أقدّم، لنفسي أو لغيري، من براهين، فالبرهنة على الجمال هي في حدّ ذاتها زئبقيّةٌ وخدّاعة، وهذا ما كان يحاول أن يفعله بدأبٍ وإخلاصٍ كلُّ من كتب في الإعجاز البلاغيّ للقرآن حتّى الآن، وعلى رأس هؤلاء الباقلّاني في كتابه "إعجاز القرآن" وعبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز".

ويجب أن نعترف بأنّ اللغويّين الغربيّين لو اتّبعوا مناهج علمائنا في إثبات الإعجاز اللغويّ للقرآن، ولا أكاد أستثني من هؤلاء أحداً، لقادهم ذلك إلى إثبات أنّ عباقرةً مثل شكسبير أو دانتي أو روسو أو غوته هم أيضاً آلهة.

2 - **الجانب التعبيريّ**: وهو يتّجه إلى إثبات أنّ القرآن معجزةٌ لغويّةٌ في دقّة تعبيره، فتحدّثوا عن الفروق اللغويّة الدقيقة بين ألفاظه وتراكيبه وتعبيراته

التي قد يخيّل إلينا أنّها متشابهةٌ وهي ليست كذلك، ممّا عُرف عند الباحثين بـ (متشابه القرآن). وكان الجاحظ من أوائل من نبّه إلى هذا الجانب في كتابه "البيان والتبيين" ثمّ تلاه القاضي عبد الجبّار في "متشابه القرآن" والإسكافيّ في "درّة التنزيل وغرّة التأويل" والرازي في "درّة التنزيل" والكرمانيّ في "البرهان في توجيه متشابه القرآن".

وحاول هؤلاء محاولاتٍ مخلصةً وشاقّةً أن يتلمّسوا الفروق الدقيقة في المعنى التي تنبني على الفروق الدقيقة في التعبير، كالفرق بين هذه الأزواج التعبيريّة القرآنيّة: ﴿أفلم يسيروا/ أولم يسيروا﴾ و﴿إليه مَرجعُكم/ إلى اللهِ مَرجعُكم﴾ و﴿كذلكَ يَطبعُ الله/ كذلكَ نَطبع﴾ و﴿وفُتحت أبوابُها/ فُتحت أبوابُها﴾.. ومهما صحّت هذه الفروق وسلمت من التعسّف، وقد انزلق إليه في الواقع أكثر من كتبوا فيها، فإنّها لا يمكن أن ترتقي وحدها في عين غير المسلم، أو لنقُل في عين البحث العلميّ المجرّد، إلى درجة الإعجاز، وهي الدرجة التي لا يجد عندها المعاند فسحةً للجدل أو المدافعة.

نعم إنّ اجتماع هذه الجوانب البلاغيّة والجماليّة جنباً إلى جنبٍ مع الظواهر اللغويّة التجديديّة، تلك التي وقفنا لها بحثنا هذا، من شأنه أنْ يرفد في النهاية المصبّ الإعجازي العامّ للغة الوحي، كما أسلفنا، ولكن من غير أن يشكّل الجانبان الأوّلان منفردين الأرضيّةَ الثابتة الصلدة، والمقبولة لدى الباحث العلميّ المتجرّد، في إثبات هذا الإعجاز.

3 - **الجانب العلميّ**: وهو جانبٌ ابتدأ بالظهور في تراثنا، خلافاً لما يظنّه الكثيرون، منذ فترةٍ مبكّرةٍ جدّاً، وحاول فيه القدماء، ثمّ تابعهم المُحدَثون، أن يثبتوا أنّ القرآن معجزةٌ علميّة بما جاء فيه من حقائق كونيّةٍ لم تُكشف إلّا في القرون أو السنوات المتأخّرة. وهذا الجانب، لو سَلِم من التعسّف ومن المناهج غير العلميّة التي انزلق إليها كثيرٌ ممّن كتبوا فيه، ولا سيّما المُحدَثون، هو ممّا لا يمكن أن يماري في حقيقته مُمارٍ.

لم يكن التعسّف هو المرض الوحيد الذي أصاب هذا الجانب الأخير من الدراسات الإعجازيّة، فمعظم من كتبوا أو تحدّثوا فيه من المعاصرين كانوا

كأنّما يضحكون على أنفسهم وعلى قرّائهم، فلا متحدّثون متخصّصون، ولا خطابٌ علميّ، ولا توثيق، ولا إحالة علميّة إلى المصادر الغربيّة لمادّة بحوثهم من علماء أو دوريّاتٍ أو مراكز بحث.

كان القدماء معذورين إلى حدٍّ كبيرٍ في عدم الإحالة إلى تلك المصادر، فضلاً عن أنّهم كانوا أكثر منهجيّةً من المُحْدَثين في بحوثهم. لقد كان العرب والمسلمون يملكون آنذاك ناصية العلوم والاكتشافات في العالَم، وكانوا هم المرجع الأوّل في إثباتها أو نفيها، يوم أن كانت الحضارة تكتب من اليمين إلى اليسار. لقد كنّا نتكلّم والعالم يسمع، ونُملي وهو يكتب، ولكنّ الأمر أضحى مختلفاً تماماً اليوم، ومراكز الإشعاع العلميّ ومصادر الاكتشاف وصناعة القرار العلميّ انتقلت إلى الضفّة الأخرى من العالم بعد أن غدت الحضارة، شئنا أم أبينا، تُكتب من اليسار إلى اليمين.

في العصر الحديث، عندما ظهرت أوائل كتب المعاصرين الذين كتبوا في الإعجاز العلمي، من أمثال طنطاوي جوهري ووحيد الدين خان وعبد الرزاق نوفل، تلقّى المسلمون في القرن العشرين هذه الكتب كما تتلقّى الصحراء الظمأى مياه المطر. ولكن دخول العالم في طورٍ جديدٍ من التكنولوجيا والمخترعات والتفكير العلميّ، وانتقال الفكر الإسلاميّ، مع هذا التطور، إلى مرحلةٍ أكثر موضوعيّةً وعلميّة، جعل المسلمين يتطلّعون إلى كتبٍ أكثر منهجيّةً وأكثر استجابةً لمتطلّبات عصر التفكير العلميّ، وما كان مقبولاً، وربّما مطلوباً في القرن العشرين، من كتبٍ في الإعجاز تقوم على عرض المعلومات من غير توثيقٍ أو مرجعيّةٍ علميّةٍ ومنهجيّة، أصبح في القرن الحادي والعشرين بعيداً عن الاحترام والقبول لدى المثقّفين من المسلمين أو غيرهم.

كان من أوائل من طرق باب الإعجاز العلميّ من القدماء: الجاحظ (ت255هـ)، وابن سُراقة (ت415هـ)، والماوَردي (ت450هـ)، والغزالي (ت505هـ)، والقاضي عياض (ت544هـ)، وفخر الدين الرازيّ (ت606هـ)، وابن أبي الفضل المُرسيّ (ت655هـ)، وداود الإنطاكيّ (ت1008هـ)، ومن المُحدَثين: الإسكندرانيّ (ت1889 م)، وعبد الرحمن الكواكبيّ (ت1903م)، وطنطاوي جوهري (ت1940م)، ومن المعاصرين: وحيد الدين خان، وعبد

obeikan.com

الرزّاق نوفل، ومصطفى محمود، وموريس بوكاي، ورياض مصطفى العبد الله، وعبد المجيد الزنداني، ومحمّد علي البار، ونبيل عبد السلام هارون، وطارق سويدان، وزغلول النجّار، وسيّد وقار حسيني، وبسام ضفدع، وعبد الدائم الكحيل، ومحمّد راتب النابلسي، وباسل الطائي، وصلاح الدين جنيد، ومحمّد جميل الحبّال، وعبد العزيز المصري، ومقداد مرعي الجواري، وغيرهم كثير من علماء مصر والشّام والعراق خاصّةً.

وظهرت سلسلةٌ من الكتب التي تتحدّث عن "الإعجاز العدديّ" في القرآن كان من بواكيرها كتاب عبد الرزّاق نوفل "الإعجاز العدديّ في القرآن الكريم" الذي صدر في أوائل السبعينيّات عن دار الشعب في القاهرة، وطبع بعد ذلك طبعاتٍ عديدة، وقد أتى فيه بقوائم لا نهاية لها "للمثاني" التي بُنيت عليها لغة القرآن الكريم. فعدد ألفاظ الليل بعدد ألفاظ النهار، وعدد ألفاظ الجنة بعدد ألفاظ النار، وعدد ألفاظ الملائكة بعدد ألفاظ الشياطين، بل اكتشف أن اللفظ (شهر) يَرد (12) مرة في القرآن، أمّا اللفظ (يوم) فيَرد (365) مرّة. والحقيقة أنّ الإمام الفخر الرازي كان أوّل من نبّه في تفسيره الكبير إلى هذا السرّ اللغويّ في القرآن الكريم عند حديثه عن اللفظ "مثاني" في قوله تعالى ﴿كتاباً متشابهاً مَثانيَ تقشعرُّ منه جُلودُ الذين يَخشَون ربَّهمْ﴾ [الزُمر: 23]. يقول الرازي:

> أكثر الأشياء المذكورة (في القرآن) وقعت زوجين زوجين، مثل: الأمر والنهي، والعامّ والخاصّ، والمجمل والمفصّل، وأحوال السموات والأرض، والجنّة والنار، والظلمة والضوء، واللوح والقلم، والملائكة والشياطين، والعرش والكرسيّ، والوعد والوعيد، والرجاء والخوف. .[2].

ثمّ تعدّدت بعد كتاب نوفل الكتبُ والمقالات والأبحاث التي تتحدّث عن هذا الجانب الإعجازيّ أو ذاك في القرآن: عن إعجاز ألفاظه ودلالاتها،

---

(2) الرازيّ، الفخر. **التفسير الكبير**. بيروت: دار إحياء التراث العربيّ، 2001، ج9، ص446.

وإعجاز عدد آياته وعدد حروفه، وإعجاز دلالة فواتح السوَر أو المقطّعات، وإعجاز ترتيب سوَره، وإعجاز عدد آيات كلّ سورة، والخطّ البيانيّ الغريب الذي يمكن أن ينتج عن التوافق والارتباط بين هذا الترتيب وتلك الأعداد، وغير ذلك كثير..

وحتّى لا نخسر هذا الجانب الإعجازيّ الهامّ في القرآن الكريم، ونضيّع الفرص العظيمة التي يتيحها لنا ونحن نحاول أن نثبت للآخرين سماويّة القرآن الكريم، لا بدّ أن تكون هناك قواعد يلتزم بها كلّ من يريد أن يتصدّى للحديث عن الإعجاز العلميّ، وأبسط هذه القواعد، وهي ممّا لا بدّ من الاحتكام إليه في تقويم مكانة المتحدّث ومرجعيّته، هي:

1 - أن ينحصر الحديث في الإعجاز العلميّ بالمختصّين من علمائنا فلا يتجاوزه إلى غير أصحاب الاختصاص، فما أكثر المختصّين في العلوم من باحثينا ممّن نالوا في الوقت نفسه نصيباً من الثقافة القرآنيّة يؤهّلهم للحديث عن الإعجاز في مجال اختصاصهم. ثمّ لا بدّ أن يحصر كلٌّ من هؤلاء حديثه فيما يخصّ حقله من الإعجاز ولا يتجاوزه إلى غيره. فلا يتحدّث الفيزيائيّ عن الإعجاز الطبّي، ولا الطبيب عن الإعجاز الكونيّ، ولا عالم الفلك عن علوم الأرض، بحيث يستطيع المشاهد أو السامع أو القارئ أن يثق بما يقوله هذا العالم المختصّ ويستند إليه بوصفه مرجعاً في هذا الباب.

2 - ألّا يطلق هذا العالِم حديثه على عواهنه دون إسناده إلى مصادره، فلا يكفي أن يقول: أثبت الباحثون، أو: ثبت علميّاً، أو سمعت أحد العلماء الغربيّين يقول، أو اجتمعتُ مع جمهورٍ من العلماء الغربيّين فشرحت لهم ما تنصّ عليه الآيات من حقائق علميّة في مجال اختصاصهم فأعلن نصفهم إسلامه.. كما نسمع أو نقرأ، للأسف، من عديدٍ من العاملين في هذا الحقل..

3 - لا بدّ أن يكون المصدر العلميّ الذي أخذنا عنه غربيّاً. فالغرب هو وحده اليوم مرجعنا في الكشوف العلميّة، وإلى أن تعود الحضارة لتُكتب من اليمين إلى اليسار ستظلّ هذه القاعدة معمولاً بها في توثيقنا لأيّة معلومةٍ علميّة.

4 – ألّا يكتفي المتحدّث بذكر المصدر الذي أخذ عنه المعلومة، بل يذكر كلّ التفاصيل المتعلّقة به: اسم الباحث، واسم مركز البحوث الذي ينتمي إليه والبلد والمدينة، واسم المجلّة العلميّة التي نشرته، وتاريخ نشره، ورقم العدد الذي نشر فيه..

5 – إذا سبق لباحثٍ آخر أن تعرّض للفكرة نفسها في حديثٍ أو مقالةٍ أو كتاب؛ فلا بدّ من تطبيق أبسط قواعد الأمانة العلميّة في النقل، وذلك بإعادة الفكرة إلى صاحبها، لا أن ننشرها ونخوض في الحديث عنها ونستعرض مواهبنا العلميّة من خلالها على الشاشات التلفازيّة متجاهلين ذكر اسم صاحبها الأوّل، فيتناقلها الناس على أنّها للمتحدّث المتطفّل وليس للباحث المكتشف. إذا لم نكن أمناء مع القرآن أمام الله وأمام الناس فكيف نكون أمناء مع غيره؟

إحجام الدارسين عن الخوض في الإعجاز التجديديّ:

ومع إحساس العرب الواضح، كما يظهر في كتاباتهم بين مفسّرين ولغويّين ونحويّين ونقّاد، بأنّ في لغة القرآن شيئاً جديداً لم تعرفه العربيّة من قبل، فإنّهم، ولأسبابٍ عديدةٍ سنأتي عليها، لم يحاولوا الخوض في هذا "الجديد" حين يتحدّثون عن الجانب الإعجازيّ في القرآن، واكتفوا بالإشارة إليه أو الإشادة به من بعيد، بل ربّما أشاح بعضهم النظر عنه وأنكره، بحيث وجدنا منذ الفجر الأوّل للإسلام من يضطرّ للدفاع عن هذه الجدّة ويؤكّدها في وجوه منكِريها، كما فعل عليّ بن أبي طالبٍ ﵁ حين ردّ على من ينكر قراءة الهمزِ في ألفاظٍ مثل (البَرِيّة والنبيّ) لتُقرأ هكذا مقطوعةً (البريئة والنبيء) فقال رضي الله عنه "نزل القرآن بلسان قريشٍ وليسوا بأصحاب نبرٍ (أي قطع الهمزة كما مثّلنا) ولولا أنّ جبرائيل عليه السلام نزل بالهمزة على النبيّ ﷺ ما همَزْنا "[3].

---

(3) ابن الحاجب، أبو عمرو عثمان. **شرح الرضيّ على شافية ابن الحاجب**. القاهرة: مطبعة حجازي، (د. ت.). ج3، ص32.

وقع الصدمة التجديديّة على العربيّ الأوّل:

وكانت هذه الجدّة المتوزّعة على مختلف جوانب الأسلوب، اللفظيّة والتعبيريّة والنحويّة والصرفيّة والبيانيّة، فضلاً عن الجانب الفكريّ، باعثَ حيرةٍ وذهولٍ لدى من سمعوا التنزيل أوّل مرّة، وكانت عبارةٌ قرآنيّةٌ صغيرةٌ من ثلاث كلماتٍ مثل ﴿فاصدَعْ بما تُؤمَر﴾ كافيةً لتهزَّ البدويّ الذي سمعها مصادفةً فيقول: ما هذا الذي أسمع!! ليس هذا بكلام بَشَر، ثمّ يسجد قائلاً: "سجدتُ لفصاحة هذا الكلام"(4).

وانظر إلى ذلك الإحباط اللغويّ الذي أصيب به واحدٌ من أعلمِ المشركين بالأدب والشعر، وهو عُتبة بن ربيعة، حين ندبته قريش ليواجه الرسول ﷺ ويعود إليهم بتقريرٍ يُسفّه ما يقول، كما فعل مِن قبلِه، أو مِن بعدِه، الوليد بن المغيرة، فماذا كانت النتيجة؟

أخرج أبو يَعلى والحاكم والبيهقيّ وابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال:

> اجتمع قريشٌ يوماً فقالوا: أُنظُروا أعلمَكم بالسحر والكَهانةِ والشِعرِ فلْيأتِ هذا الرجلَ الذي قد فَرَّقَ جماعتَنا وشتّتَ أمرَنا وعابَ دينَنا، فلْيكلِّمْهُ ولْيَنظرْ ماذا يَردُّ عليه. فقالوا: ما نعلمُ أحداً غيرَ عُتبةَ بنِ ربيعة، فقالوا: اِئتِ يا أبا الوليد، فأتاه فقال:
>
> يا محمّد، أنت خيرٌ أم عبدُ الله (والد النبيّ)؟ أنتَ خيرٌ أم عبدُ المطّلب؟ فسكتَ رسولُ الله ﷺ. قال: إن كنتَ تزعُمُ أنّ هؤلاء خيرٌ منك فقد عَبَدوا الآلهةَ التي عِبتَ، وإن كنتَ تزعُم أنّكَ خيرٌ منهم فتكلَّمْ حتّى نسمعَ قولَك، أمَا واللهِ ما رأينا سَخلةً قطُّ أشأمَ على قومِكَ منك، فَرَّقْتَ جماعتَنا، وشتَّتَّ أمرَنا، وعِبتَ دِينَنا، وفضحْتَنا في العرب، حتّى لقد طار فيهم أنّ في قريشَ ساحراً، وأنّ في قريشَ كاهناً، واللهِ ما ننتظرُ إلّا مثلَ صيحةِ الحُبلى أن يقومَ بعضُنا إلى

(4) السيوطيّ، جلال الدين. **الإتقان في علوم القرآن**. تحقيق: محمد سالم هاشم. بيروت: دار الكتب العلمية، 2003، ج2، ص108.

بعضٍ بالسيوف. يا رجل، إنْ كان إنّما بك الحاجة، جمعْنا لك حتّى تكونَ أغنى قريشَ رجُلاً، وإن كان إنّما بك الباءة، فاخترْ أيَّ نساءِ قريشَ شئتَ فلَنُزوِّجنّكَ عشْراً.

فقال رسولُ الله ﷺ: فرغتَ؟ قال: نعم. فقال رسول الله ﷺ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. حم. تنزيلٌ من الرحمن الرحيم. كتابٌ فُصِّلَتْ آياتُه﴾.. حتّى بلغ: ﴿فإنْ أعرَضوا فقل أنذرتُكم صاعقةً مثلَ صاعقةِ عادٍ وثمود﴾ [فُصّلت: 1-13] فقال عُتبة: حسبُك حسبُك، ما عندكَ غيرُ هذا؟ قال: لا. فرَجَع إلى قريش، فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركتُ شيئاً أرى أنّكم تكلّمونه به إلّا كلّمتُه. فقالوا: فهل أجابك؟ قال: والذي نصبَها بَنِيّةً (يقسم بالكعبة) ما فهمتُ شيئاً ممّا قال غيرَ أنّه أنذركم صاعقةً مثلَ صاعقةِ عادٍ وثمود. قالوا: ويلَك: يكلّمُكَ بالعربيّةِ وما تدري ما قال؟! قال: لا واللهِ ما فهمتُ شيئاً ممّا قال غيرَ ذِكرِ الصاعقة.

تُرى أيّ نوعٍ من التلقّي لهذه الآيات تلقّاه عُتبة، البليغُ الأديب الحكيم، الخبيرُ بلغة العرب وأساليبهم وآدابهم؟ وما طبيعة تلك الصدمة اللغويّة التي أطاشت صوابه، بحيث عاد إلى قومه هذه العودة الخائبة، وقد أُرتج عليه، فلم يفهم الآيات، ولم يَعِ ممّا سمعه منها إلّا ذكرَ الصاعقة؟

أرأيت بلداً عُرف بين بلدان العالم بتفوّقه في صناعة النسيج، ففيه أضخمُ المصانع وأعرقها في إنتاج هذه المادّة، ويقوم على هذه المصانع أشهر خبراء الخيوط والأقمشة والألبسة، وفجأةً يظهر صانعٌ مغمورٌ لا خبرة له، في حيٍّ فقير، من بيتٍ متواضع، في بلدٍ صغيرٍ ناءٍ، فينزل إلى السوق بنوعٍ من الخيوط يختلف عن كلّ الخيوط المعروفة، وبنوعٍ من القماش يبذّ سائر إنتاج المصانع، فيحاول أصحابُها أن يكتشفوا كيمياء هذه الخيوط الجديدة لينتجوا مثلها، وأن يعرفوا أسرار صناعة هذا النسيج المتفوّق ليقلّدوه، فيرسلون خبراءهم ومختصّيهم علّهم يكتشفون الموادّ الأساسيّة التي يعتمد عليها هذا المصنع الصغير، والآلات الجديدة التي يقوم عليها، وأسرار "الخلطة" التي تتحكّم بصناعته، فيعودون بخُفَّي حُنَين وقد سُقِط في أيديهم يائسين؟

هكذا كان شأن عُتبة مع النسيج اللغويّ القرآنيّ الجديد. إنّه لم يفهم ما تُلي عليه، ليس لأنّ لغة القرآن غير عربيّةٍ أو ليست مفهومة، بل لأنّ عقله كان لا يستطيع أن يجمع في وقتٍ واحدٍ القدرة على التقاط معاني ما يسمع، وهي أيضاً معانٍ جديدةٌ ومختلفةٌ وغريبةٌ كلّياً عليه، والقدرة على تلقّي اللَكَمات القويّة والصدمات المتلاحقة للّغة الجديدة وألفاظها وتراكيبها وبنائها وعلاقاتها التي تختلف عن كلّ ما عرف من قبل، فإمّا أن يتلقّى هذه وإمّا أن يتلقّى تلك، شأنه شأن حارس المرمى الذي لا يستطيع أن يصدّ في مرماه كُرتين في وقتٍ معاً. لقد علقت بذهنه آخر عبارةٍ فقط من الآيات، وهي وحدها التي أدرك معناها، فقد كان لديه الوقت الكافي، وقد توقّفت الصدمات اللغوية مع انتهاء قراءة الآيات، ليلتقط أنفاسه، ويبتلع هذا المعنى ويتبيّنه ويهضمه، في أثناء رحلة العودة إلى قومه من عند رسول الله ﷺ.

طبيعة التحدّي الجديد:

قد تكون قصّة عُتبة مع قومه مفتاحاً مناسباً في أيدينا للدخول إلى تلك الأسرار الإعجازيّة الخفيّة التي حيّرت بلغاء العرب، وأصابتهم بذهولٍ لم يعوا معه، لأوّل وهلة، المعاني الصريحة والواضحة التي ساقها القرآن إليهم. وحبّذا لو عاد أحدنا إلى تلك الآيات الأولى من سورة (فُصّلت) فقرأها مستحضراً شخصيّة عُتبة، ومحاولاً أن يتحسّس بنفسه عناصر الإعجاز الجديدة التي أحدَثت في ذلك العربيّ البليغ تلك الصدمة المفاجئة، فأفقدته وعيه اللغويّ، وجرّدته من قدرته على فهم نصٍّ جاء بلغةٍ ظنّ وظنّوا أنّها طاعت لهم كما لم تَطُع لغيرهم.

كم شدّتني وحيّرتني قصّة إسلام عمر بن الخطّاب رضي الله عنه وهو الذي لم يبكِ قطّ -كما أخبرنا- إلّا عندما وَأَدَ ابنته، بعد أن اكتشف وهي في الخامسة أنّها حيّة، وقد أخفتها عنه زوجته طوال هذه السنين، فراحت تمدّ يدها الصغيرة من تحت التراب لتنفض ما علق بلحيته منه وهو منهمكٌ في الحفر، فسالت دمعةٌ من عينه لِما يفعله بها، من غير أن يوقفه هذا عن متابعة دفنها: كيف يتحوّل صاحب هذا القلب الحجريّ فجأةً إلى إنسانٍ ندر أن عرفت البشريّة مثل عدله

وحكمته ورحمته، وذلك لمجرّد سماعه كلماتٍ من أوائل سورة (طه)، فيسقط من يده سيف الكفر، وقد جاء ليقتل به أخته وصهره بعد أن سمع بإسلامهما، ليتحوّل في لحظةٍ إلى سيفٍ للإيمان يشهره في وجوه أعداء الإسلام؟

إنّ شيئاً ما خفيّاً يحدث هنا لم تستطع آذاننا اكتشافه. فمِن أين لنا أُذُن عمر نستبدل بها آذاننا، فنكتشف من إعجاز القرآن ما اكتشف، ونُحسّ منه ما أحَسّ، ممّا عجزنا نحن عن الإمساك به ووضع أصابعنا عليه؟

كنت أتساءل دائماً فيما بيني وبين نفسي: أن يتحدّى القرآن الكريم العربَ بأن يأتوا بمثله أمرٌ مثيرٌ، ولكنّه واقعيٌّ ومعقولٌ جدّاً. ثمّ أن يتحدّاهم بأن يأتوا بعشر سوَرٍ من مثله أمرٌ مدهشٌ، ودَلالةٌ قويّةٌ وغير عاديّةٍ على ثقة المتحدّي أمام المتحدَّى. لكن أن يتحدّاهم بعد ذلك مرّتين، وفي سورتين مختلفتين متباعدتين في نزولهما (البقرة ويونس) بأن يأتوا ﴿بسورةٍ من مثله..﴾ بسورةٍ واحدةٍ فحسب! فهذا أكثر من عجيب، وأكثر من مجرّد ثقةٍ عاديّةٍ للمتحدّي أمام المتحدَّى.

ماذا لو فعلوها وتداعى كبارُهم للاجتماع، من شعراء وأدباء وخطباء ولغويّين وعباقرة، وتعاونوا على كتابة سورةٍ واحدةٍ بحجم سورة (الضحى)، أو ربّما بحجم سورة (العصر) أو (الكوثر)، أي إنّها مسألة تأليف سطرٍ واحدٍ لا أكثر؟! هل سيكون الأمر شاقّاً عليهم إلى هذه الدرجة؟ أوَليست اللّغة لغتَهم وبينهم من هم أدباؤها وعباقرتها وأمراء بيانها؟

الإعجاز ومذهب الصَّرْفَة:

لقد ظنّ بعضهم هذا حقّاً، ومنهم من حاول، صحّ ذلك عن بعضهم أم لم يصحّ، أن يجرّب حظّه في تقليد القرآن، كمُسَيلمة وابن المقفّع والمتنبّي والمعرّي وابن الراوندي، ولكنّ محاولاتهم، التي لم تُثِر إلّا السخرية والاشمئزاز بين معاصريهم بحيث لم يفكّروا حتّى بمعاقبتهم أو تأنيبهم، ما لبثت أن ذابت وتلاشت تحت سطوع اللغة القرآنيّة المتفرّدة.

هل سمعتم قطّ بمذهب **الصَّرْفَة**؟ إنّه مذهبٌ عجيبٌ حاول بعض من فاتتهم "الصدمة الأولى"، بعد أكثر من مائة عامٍ على نزول القرآن الكريم، أن

يفسّروا به عجز العرب عن مواجهة التحدّي القرآنيّ بأن يأتوا بمثله، بل بسورةٍ واحدةٍ من مثله.

إنّهم، مِثلنا اليوم، لم يعودوا يمسكون بالومضة الأولى التي خطفت أبصار من عاصروا القرآن وهو يتنزّل بين ظهرانَيهم كلّ يوم: آيةً آيةً وسورةً سورة، ولم يعودوا قادرين على فصل أنفسهم عن أنفسهم، فيستعيروا آذان المسلمين الذين كانوا يتلقّون ومضات الوحي من رسول الله حال تنزّله، ليمسكوا بحقيقة الإعجاز التجديديّ الذي فاجأهم به القرآن الكريم.

وكيف يستطيعون أن يفصلوا أنفسهم، أو كيف نستطيع نحن اليوم أن نفصل أنفسنا، عن آيات الكتاب التي وُلدنا كما وُلدوا على أصوات تلاوتها، ونشأنا وترعرعنا كما نشأوا وترعرعوا مع حروفها وكلماتها؟

وهكذا لم يكن عند هؤلاء ما يسوّغون به العجز عن تقليد العرب للقرآن إلّا أن يظنّوا بأنّ الله، وبمعجزةٍ سماويّةٍ منه، قد "**صَرف**" الأذهان والعبقريّات العربيّة في فترة تنزّله، ولتلك الفترة فقط، عن تقليد القرآن، وإذن: فمعجزة القرآن ليست في ذاته، بل هي في صرفِ الله تعالى لقلوب العرب وعقولهم عن تقليده في أثناء سنوات الوحي، وإذن، وقد انتهت مرحلة التحدّي، ورُفعت "الصَّرفة" المؤقّتة التي كانت حالةً إعجازيّةً طارئةً اقتصرت على من عاصر تنزُّل القرآن من العرب، فبإمكان المقلّدين والمدّعين إذن، وقد انصرمت الفترة الاستثنائيّة، أن يقلّدوه وأن يأتوا بسورةٍ بل بسوَرٍ عديدةٍ مثله!!

لقد وُلدت هذه الخاطرة أوّلاً في رأس الجَعْد بن دِرهم، مؤدِّب مروان ابن محمّد آخر خلفاء الأمويّين، ثم انتشرت الفكرة حتّى وصلت إلى (النَظّام) المتكلّم المعروف (ت231هـ) فقال:

> الآية والأعجوبة في القرآن، بما فيه من الإخبار عن الغيوب، فأمّا التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أنّ الله منعهم بمنعٍ وعجزٍ أحدثَهما فيهم[5].

(5) الغريب أنّ الدكتور شوقي ضيف رحمه الله (ت2005م) نسب هذا القول في بعض =

obeikan.com

وهكذا فكّروا في كلّ الطرق التي قد تخرجهم من حيرتهم وهم يحاولون تفسير ما سمعوه عن "الإعجاز اللغويّ" وكيف "أَعجز" القرآنُ العربَ عن تقليده، ولكن لم يحاولوا أبداً أن يتّجهوا بتفكيرهم نحو الإجابة عن السؤال: هل كان أحد جوانب إعجاز القرآن، بل الجانب الأهمّ فيه والأكثر جدارةً بهذه التسمية، يكمن في أنّه أتى "بلغةٍ جديدةٍ كلّياً" يعجزون عن الإتيان بمثلها؟ وما طبيعة هذه الجدّة وحجمها ومداها؟

الحجم الحقيقيّ للإعجاز التجديديّ:

وأعترف بأنّني لم أكن أدرك نوعيّة التحدّي ساعةَ تصدّيت للإجابة عن هذا السؤال وقرّرت أن أُدخل لغة القرآن الكريم إلى مخبري اللغويّ وأضع نسيجها تحت المُجهِر.

لم أتبيّن أبداً من قبل، وبثقةٍ ووضوحٍ كاملين، أنّ وراء كلّ آيةٍ، بل كلّ عبارة، وأكاد أقول: كلّ لفظة، معجزةً و"اختراعاً" بل أكثر من اختراعٍ واحدٍ في كثيرٍ من الأحيان -وأعتذر إلى الله إذ لم أجد غير هذا اللفظ البشريّ القاصر للتعبير عن طبيعة إعجازٍ لا تحيط به لغتنا، ولله دائماً المثل الأعلى- حتّى كاد يبلغ بي التساؤل، أنا الذي أصابني القلق يوماً من تحدّي القرآن للعرب بأن يأتوا بسورةٍ من مثله، لأقول لنفسي الآن، وقد اكتشفت ما

= آخر مؤلّفاته "معجزات القرآن". (شوقي ضيف. **معجزات القرآن.** القاهرة: دار المعارف، 2002، ص69) إلى أبي الحسن الأشعريّ (ت324هـ) في كتابه "مقالات الإسلاميّين" والحقّ أنّ الأشعري لم يقل بهذا بل نَسب القول الذي يستشهد به ضيف إلى (النّظّام) حيث يذكر: "وقال النّظّام: الآية والأعجوبة في القرآن.. إلى آخر النصّ". الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل. **مقالات الإسلاميّين واختلاف المصلين.** تحقيق: هلموت ريتر. اسطنبول: (د. ن.)، 1929، ص57. والأغرب من ذلك أن ينسب ضيف، في المكان نفسه، إلى المعتزلة قولهم بالصَّرفة، وذلك حين ينصّ: "ونتقدّم في الزّمن إلى أوائل القرن الثّالث الهجريّ فتُعزى الفكرة (القول بالصّرفة) إلى نفرٍ من المعتزلة، مثل بِشر المريسيّ وعيسى بن صُبيح المُردار"، ولكنّ الأشعريّ، وهو الذي بدأ حياته معتزليّاً، يقول في المكان نفسه: فقالت المعتزلة، إلّا النّظّام وهشاماً الفوطيّ وعبّاد بن سليمان: تأليف القرآن ونظمه مُعجزٌ محالٌ وقوعُه منهم كاستحالة إحياء الموتى".

اكتشفت: عجباً، كيف توقّف التحدّي القرآنيّ عند الإتيان بسورةٍ من مثله، ولم يتجاوزها إلى الإتيان بآيةٍ مثله؟! ثمّ ما لبثت أن طامنت من عجبي واستغرابي حين تذكّرت أن في القرآن آياتٍ لا تعدو الآية منها كلمةً واحدة، بل إنّ منها ما لا يعدو حروفاً، فطأطأت مذعناً لسموّ التحدّي الإلهيّ الحكيم.

منذ بدأت أتبيّن تلك الحقيقة، صرت كلّما اقتربت من لغة القرآن لمعالجتها واكتشاف أسرارها، أتصوّر نفسي وكأنّني مسِخٌ صغير يحاول أن يتسلّق إصبعاً من أصابع قدمِ عملاقٍ هائل، ثمّ لا يكون له ذلك.

إنّ ما في هذه اللغة ليس نوعاً من الاختراعات العلميّة التي عرفناها في هذا العصر، ولكنّها مستجِدّاتٌ لغويّةٌ مذهلةٌ مستعصيةٌ ومتنوّعة المعالم والأشكال، تتوالى وتتلاحق، بعضها يأخذ بعَناق بعض، بحيث يصاب من يحاولها أو يتصدّى لتقليدها بإحباطٍ يدرك معه أن لا سبيل إلى المطاولة والمكابرة.

أرأيت لو أنّ لك حديقةً جميلةً تخرج إليها كلّ يوم متنزّهاً، فتشمّ زهرةً ههنا، وتكتشف برعماً جديداً هناك، وتقطف ثمرةً من هذه الشجرة، وأخرى مختلفة الطعم من تلك، ثمّ جاء من يقول لك إنّ في حديقتك، التي تستمتع كلّ يومٍ برؤية عشرات الأشياء الجميلة فيها، آلافاً من الأسرار العجيبة التي خَفيت عنك ولم تقع عيناك عليها أبداً؛ رغم أنّها قريبةٌ إليك وفي متناول يديك وتحت نظرك.

ثم ما يلبث أن يقدّم لك نظّاراتٍ، فتضعها على عينيك، وإذا أنت أمام مشهدٍ مختلفٍ تماماً عمّا عهدته من قبل: فتحت كلّ حجرٍ في الحديقة لؤلؤةٌ ثمينة، وبين كلّ ورقتين من أوراق الورد صفيحةٌ رقيقةٌ من الفضّة، وتحت لِحاء كلّ شجرةٍ عصارةٌ من عطرٍ رائعٍ لم تعرفه من قبل، وبين كلّ ذرّتين من ترابها ذرّةٌ من معدِنٍ ثمين، وو.. كلّ هذا في حديقتك وأنت لا تعلم!

إنّ عملنا في هذا البحث ما هو إلّا محاولةٌ لإيجاد مثل هذه النظّارات الخاصّة، والإمساك بيد قارئ القرآن ليتخلّص، بنظّارتيه الجديدتين، من الألفة التي تقتل قدرته على رؤية الإعجاز التجديديّ فيه، ليفاجأ، وهو ينظر من

obeikan.com

خلال العدستين الجديدتين، بأسرارٍ وحقائق لغويّةٍ وبيانيّةٍ لا حدود لها، ولم يكن يدري عنها قبل ذلك شيئاً.

هل ترك الأوّلون للآخِرين؟

لو قبلت أن أستسلم لمقولة "لم يترك الأوّلون للآخِرين شيئاً"، وقد قيلت لي أكثر من مرّة على مدى سنوات إعدادي لهذا البحث، لانصرفتُ عن إقحام نفسي في هذه المغامرة الاستكشافيّة غير المأمونة العواقب، ووفّرت على نفسي كثيراً من المتاعب والانتقادات التي لا نهاية لها، ولكنّني كنت أنثني دائماً عن هذا الخاطر وأقول لنفسي: ما بالك يا بسّام؟ وهل توقّفت سلسلة الإبداع والاكتشاف يوماً؟ إذن لتوقّفت البشريّة عن النموّ، ولَما كانت حضارةٌ ولا اختراعٌ ولا تطوّرٌ في هذه الأرض.

وحدث أن واجهتني هذه المقولة مرّةً بحضور أستاذنا اللغويّ الكبير الدكتور مازن المبارك فكان أن تلطّف وردّها على صاحبها بنفسه قائلاً: أخبرنا إذن، في أيّة سنةٍ بالضبط تنتهي حقبة الأوّلين وتبدأ حقبة الآخِرين؟

ومن المؤكّد أنّه حتّى القدماء، وقدماء القدماء، واجهتهم هذه المقولة الأزليّة المحبِطة، ولا أدري إن كان أحدهم قد اقترح أيضاً، أو سأل من يقترح، كما سأل الدكتور المبارك، سنةً ينتهي عندها عصر الأقدمين ويبدأ عصر المحدثين، كما فعل النحويّون حقّاً مع الشواهد النحويّة، وكان عبد القاهر الجرجانيّ، منذ القرن الخامس الهجريّ، أي قبل ألف عام، يشكو من عبء هذه المقولة فيقول:

> وكلامٌ كثيرٌ قد جرى على ألسنة الناس وله مضرّةٌ شديدةٌ وثمرةٌ مُرّة. فمِن أضرِّ ذلك قولُهم: لم يَدَعِ الأوّلُ للآخرِ شيئاً. قال: فلو أنّ علماء كلّ عصرٍ، مُذْ جرَت هذه الكلمة في أسماعهم، تركوا الاستنباطَ لِما لم ينتهِ إليهم عمّن قبلهم لرأيتَ العلمَ مُخْتلّاً[6].

---

(6) الجرجانيّ، عبد القاهر. **دلائل الإعجاز**. تعليق: محمود محمد شاكر. القاهرة وجدّة: دار المدني، 1992، ص292.

يكتسب الأموات حالما يموتون، وبتأثير الرهبة والغموض والاحترام التي يشعر بها الأحياء تجاه الموت، نوعاً من القدسيّة، أو الاحترام الذي قد يتحوّل فيما بعد إلى قدسيّة، تحُول دوننا والتعرّض لفكرهم وآرائهم، فتكتسب هذه الآراء هي أيضاً نوعاً من القدسيّة أو الرهبة، ما تفتأ تتطوّر وتنمو مع تقادم العهد، فتميل النفوس إلى تصديقها وتكريسها، وإن كانت على خطأ، والنيل ممّن يتجرّأون على مخالفتها أو نقضها، متناسين ما أخبرنا به صلّى الله عليه وسلّم عن القرآن من أنّه "لا يشبعُ منه العلماء، ولا يَخلَقُ من كثرةِ الردّ، ولا تنقضي عجائبُه"[7] وما أوصانا به فيه "اقرأوا القرآنَ والتمِسوا غرائبَه"[8]. وإذا أوقفنا التفكير والكشف والتنقيب في مناجم القرآن فأنّى لهذه "العجائب" ولتلك "الغرائب" أن تستمرّ في الظهور؟

يقول الدكتور طه جابر العلواني معلّقاً على أولئك الذين يعارضون أيّ فكرٍ أو كشفٍ أو رأيٍ جديدٍ حول القرآن، وموضّحاً ما يمكن أن تجنيه آراء هؤلاء على الإسلام وعلى المسلمين:

> قيّد هذا التراثُ العقولَ والأفكار بقيودٍ جنتْ على الفكر الإسلاميّ فيما يختصّ بفهم القرآن، والانتفاع بهداية القرآن، فجمد الناس على تداول هذه الكتب، واتّخذوها حَكَماً بينهم، واعتقدوا جملةَ ما فيها، من غير تمييزٍ بين حقٍّ وباطل، ونافعٍ وضارّ، واعتقدوا أنّه ليس لمؤمنٍ أن ينكر شيئاً منها أو يتجاوزه، وقالوا: هذا شيءٌ درج عليه السابقون المتقدّمون ودوّنوه في كتبهم، وشرحوا به كتاب الله، وتلقّته الأمّة بالقبول، وما كان لنا أن نتجاهله أو نتجاوزه، ولسنا بأعلم بالدين، ولا بأبعد نظراً في فهم أساليب القرآن، وتخريج الأحكام، فلا ينبغي أن نَحيد عمّا تلقّيناه عن الماضين قيد شعرة.. وبذلك أسلموا عقولهم إلى غيرهم.. وقعدوا عن النظر في القرآن.. بل وصل الأمر ببعض أهل العلم إلى أن يقول: إنّ هذا الشيء ثابتٌ في القرآن

---

(7) البيهقي، أحمد بن الحسين. **شعب الإيمان**. تحقيق: محمد بسيوني زغلول، بيروت: دار الكتب العالمية، ج2، ص325.

(8) المرجع السابق، ج2، ص426.

لأنّ فلاناً أو فلاناً حملوا عليه بعض آيات الكتاب الحكيم، وبذلك جعلوا القرآن تابعاً لعلم الرجال بدلاً من أن يكون علمُ الرجال دائراً مع القرآن حيث دار[9].

أهل التلاوة وأهل التدبّر:

في أثناء زيارتي لإحدى دول الخليج استضافني في منزله أحد تلامذتي العاملين هناك، ولفت سمعي، حالما دخلت معه البيت، تلاوة القرآن الكريم تنطلق في المنزل بصوتٍ خفيضٍ وقد تُرك التلفاز مفتوحاً على إحدى القنوات القرآنيّة، ثم جلسنا وتحدّثنا وأكلنا وشربنا وتسامرنا، وأنا مقسّم الذهن بين ما أسمع من مضيفي وما يتناهى إلى أذنيّ من الآيات المتلوّة، حتى انتهينا إلى الفراش والتلاوة ما زالت تنبعث في الأرجاء، فكان لا بدّ أن أطرح على مضيفي السؤال الذي احتبس طويلاً في صدري: وهل تنام أيضاً على صوت التلاوة؟ فقال: إنّ قراءة القرآن لا تتوقّف في منزلي ليل نهار، حتّى أثناء غيابي عن المنزل لعدّة أيّام.

وبغضّ النظر عن الحوار الهادئ الذي جرى بيني وبين تلميذي بعد ذلك حول هذا التقليد، أثارت هذه الحادثة في نفسي التفكير في أمر المسلمين وموقفهم من القرآن الكريم. فقد رأيتهم يتوزّعون بين طائفتين: الأولى، وهي الأعمّ، تتّخذ من القرآن سلوىً وبركة، فتعلّقه على جدران منزلها، أو تقتني نسخةً فاخرةً مذْهَبَةً تزيّن بها غرفة الاستقبال، أو تستأجر المقرئين أيّام العزاء ليقرأوا ما يتيسّر من سوره الكريمة، أو ربّما تتجاوز ذلك إلى التباري، وتشجيع أبنائها على التباري، في حفظ آياته وسوَره وإتقان ترتيله والانكباب على قواعد قراءته وتجويده، وكلّ ذلك أعمالٌ لا يشكّ أحدٌ في أجرها وفي الدلالة على صدق احترام صاحبها وحبّه المنقطع النظير للقرآن الكريم.

والطائفة الثانية، وهي الأقلّ، تأتي عندها مظاهر التباري والتبرّك هذه في

---

(9) العلواني، طه جابر. **نحو موقف قرآنيّ من النسخ**. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2007، ص25.

الدرجة الثانية، ليتقدّمها ويعلو عليها حسن الإنصات إلى القرآن الكريم إنصات من يسمعه أوّل مرّة، والتفكّر في آياته، وتدبّر معانيه، والتفاعل والتجاوب مع حقائقه وحِكَمه وقصصه وأوامره ونواهيه.

وكثيرٌ من أهل هذه الفئة ربّما لا يكون لديها من حسن تلاوة القرآن، أو الإلمام بقواعد تجويده، أو ربّما إتقان قراءته، ما لدى الفئة الأولى، وقد يتعرّض بعضهم، على علوّ كعبهم في تدبّر القرآن الكريم وفقهه والتفاعل معه، إلى الانتقاد من بعض أفراد تلك الفئة والنيل منهم وتجريحهم لو حدث أن أخطأوا في قراءة آيةٍ من آياته، أو فاتتهم في أثناء تلاوتها قاعدةٌ من قواعد تجويده.

لم أستطع أن أنام في تلك الليلة الخليجيّة إلّا بعد أن نَهكني التعب وخدّرني التفكير وأنا مستلقٍ في فراشي أستمتع بالتأمّل في معاني الآيات الكريمة، فلم يكن لي مناصٌ من سماعها. وليت الأمر وقف عند هذا الحدّ، فما فتئت في تلك الليلة أضمّ رِجلاً أو رِجلين أو أمدّهما، أو أضمّ جسدي كلّه أو أفرده، أو أتقلّب من جنبٍ إلى آخر، أو أعدّل من نومتي قليلاً أو كثيراً بحيث أختصر استلقائي إلى شبه جلوسٍ؛ إذ لم أجد نفسي في كثيرٍ من الأحيان قادراً على أن أظلّ هكذا مادّاً رجليّ بحضرة هذه المعاني القدسيّة الجليلة التي تتردّد على مسامعي وكأنّي بها لا تُلقى إلّا عليّ، ولا توجَّه إلّا إليّ، فأنصت بها إلى صوت الله عزّ وجلّ يخاطبني ويدعوني إلى منحها ما ينبغي من احترام، والاستجابة لها بما تستحقّه من فهمٍ وتدبّرٍ وإذعان.

إنّ من السهل على أفراد الطائفة الأولى أن يسمحوا باستمرار التلاوة ليل نهار، فبها تتمّ البركة، وبخيرها تحرس الملائكة البيت ويخيّم على ساكنيه السلام بإذن الله، ولكنّ الطائفة الثانية سيقضّ مضجعها واجب الإنصات، وهاجس التدبّر، وقدسيّة الموقف، وعظمة المعاني، وجلالة الخطاب.

ولعلّ مقدّمة كتاب محمّد الغزالي "كيف نتعامل مع القرآن" قدّمت أدقّ وصفٍ لموقف الطائفة الأولى من الكتاب الحكيم والنتائج السلبيّة التي انتهت إليها تأثيرات هذا الموقف في مجتمعنا الإسلامي المعاصر، حين تقول:

ذلك أنّ الصورة التي طُبعت في أذهاننا، في مراحل الطفولة،

للقرآن، أنّه لا يُستدعَى للحضور إلّا في حالات الاحتضار والنزع والوفاة، أو عند زيارة المقابر، أو نلجأ لقراءته عند أصحاب الأمراض المستعصية، وهي قراءاتٌ لا تتجاوز الشفاه.

ولذلك، اقترنت الصورة الموروثة للقراءة بحالاتٍ من الخوف والاكتئاب، ينفر منها الإنسان، ويستعيذ بالله من سماعها. فإذا تجاوزنا مؤسّسات الأمّية والعامّية التي تشكّلت من خلالها تلك الصور المفزعة للقرآن، إلى مراكز ودروس تعليم القرآن الكريم، رأينا أن الطريقة التي يُعلَّم بها يصعب معها استحضار واصطحاب التدبّر والتذكّر والنظر، إن لم يكن مستحيلاً، فالجهد كله ينصرف إلى ضوابط الشكل من أحكام التجويد ومخارج الحروف، وكأننا نعيش المنهج التربويّ والتعليميّ المعكوس. فالإنسان، في الدنيا كلّها، يقرأ ليتعلّم، أمّا نحن فنتعلّم لنقرأ، لأن الهمّ كلّه ينصرف إلى حسن الأداء، وقد لا يجد الإنسان أثناء القراءة فرصةً للانصراف إلى التدبّر والتأمّل، وغاية جهده إتقان الشكل، وقد لا يعيب الناسُ عليه عدمَ إدراك المعنى قدر عيبهم عدمَ إتقان اللفظ![10].

الكثافة الإعجازيّة للمواقع التجديديّة:

أذكر أنّني شاهدت مرّةً صورةً لسلاسل شاهقةٍ وغريبةٍ من الجبال تبدو لغرابتها ورهبة منظرها وكأنّها أُخذت لسطح القمر أو المرّيخ، وحين قلبت الصورة لأقرأ عن حقيقتها فوجئت بأنها لم تكن إلّا صورةً مكبَّرةً جدّاً للخطوط الدقيقة التي تشكّل بصمة إصبع.

هذا تماماً ما سوف يشعر به القارئ وهو يشاهد تضاريس اللغة القرآنيّة، أو ما استطعنا أن نكتشفه منها حتّى الآن، من خلال عدسة المُجهر التي يحاول أن يقدّمها له هذا البحث فيستعين بها على الإمساك بتلك الحقائق اللغويّة المحيِّرة، في حجمها المحيِّر المذهل.

---

(10) الغزالي، محمد. **كيف نتعامل مع القرآن.** مدارسة أجراها عمر عبيد حسنة. فرجينيا: المعهد العالميّ للفكر الإسلاميّ، 1991، ص14.

وربّما وقفنا عند إحدى هذه الحقائق، بمعزلٍ عمّا قبلها وما بعدها من حقائق، فاستسهلْنا أمرها، وزهِدنا في تقييم شأنها، وربّما ردّدنا في أنفسنا: نعم، إنّها جديدةٌ حقّاً، ولكن متى كان التجديد إعجازاً؟

ونحن محقّون في هذا الاعتراض، فليس هناك وجهٌ للإعجاز لو توقّفنا عند حقيقةٍ واحدةٍ أو اثنتين أو ثلاثٍ من هذه الحقائق منعزلةً عن أخواتها. فقط عندما نكتشف كثافة المواقع التي شُحنت بها الآياتُ والسوَر من هذه المستجِدّات، ونعرف كيف تتوالى الواحدة إثر الأخرى من غير توقفٍ ولا تنفّسٍ ولا استراحةٍ ولا فجواتٍ، وكيف تختفي تحت كلّ كلمةٍ أو تركيبٍ أو عبارةٍ قرآنيّةٍ، وفي تضاعيفها وخلف أثوابها، واحدةٌ أو اثنتان أو ثلاثٌ أو أكثر من عجائب التجديد التعبيريّ وأشكاله وألوانه، عند ذلك سندرك طبيعة الإعجاز اللغويّ القرآنيّ واستحالتَه على التقليد أو التزييف.

قد يقال: وهل بقي شيءٌ في العالم غير قابل للتقليد؟ لقد زيّفوا الدولار والإسترليني واليورو ومعظم العملات العالميّة، وقلّدوا التماثيل والآثار والأعمدة والمصكوكات واللوحات المشهورة لأكبر الفنّانين العالميّن، فهل يعجزون عن كتابة سورةٍ أو سورتين، أو آيةٍ أو آيتين؟

إنّ الفرق كبيرٌ بين أن تزيّف شيئاً، فيفوت على الناس تزييفُك، ثمّ إذا اكتشفوه بعد ذلك فرضوا بحقّك ما تستحقّه من عقوبة، ولكن مقرونةً في نفوسهم بالتقدير والإعجاب بإتقانك وفنّك، وبين أن تزيّف شيئاً فلا ينال من الآخرين إلّا السخرية والاستهزاء واتّهامَك بالجهل وعدم الجدّية، مثلما حصل لمسيلمة الكذّاب عندما حاول أن يستبدل بكلمات الله كلماتٍ اخترعها وأحلّها محلّها من مثل: "إنّا أعطيناكَ الجماهِر، فصلِّ لربِّكَ وجاهرْ" ومثل: "والطاحناتِ طحناً" وغيرها[11].

أو مثلما فعل بعض المبشّرين مؤخّراً في أمريكا، وكثيراً ما فعلوا ذلك من قبل فذهبت محاولاتهم أدراج الرياح، فابتدعوا ما أسموه "الفرقان

---

(11) الجرجانيّ، عبد القاهر. **دلائل الإعجاز**. مرجع سابق، ص387.

الحقّ"[12] وقسّموه إلى 77 ممّا أطلقوا عليه (سوَراً) ثم لم يفعلوا أكثر من أخذ بعض العبارات القرآنيّة عشوائيّاً، من غير إدخال أيّ تغييرٍ عليها، وحشر عباراتٍ أخرى خلالها من عندهم توافق معتقداتهم، أو ربّما لا توافقها بل تحاول أن تخرّب على المسلمين معتقداتهم بأيّة طريقة، فخرجت في النهاية بلا معنىً، من ناحية، وجاءت مثيرةً للسخريّة والإشفاق بما وقع في هذا "المزيج" اللغويّ العجيب من مفارقاتٍ أسلوبيّةٍ مضحكة، من ناحيةٍ ثانية. ومن ذلك قولهم فيما أسموه (سورة الوصايا):

"المد (1) إنّا أرسلناك للعالمين مبشّراً ونذيرا (2) تقضي بما يخطر بفكرك وتُدبّر الأمور تدبيرا (3) فمن عمِل بما رأيتَ فلنفسه ومن لم يعمل فلسوف يَلقى على يديك جزاءً مريرا (4) إنّا أعطينا موسى من قبلك من الوصيّات عشرةً ونعطيك عشراتٍ أخرى إذ قد ختمنا بك الأنبياء وجعلناك عليهم أميرا (5) فانسخ ما لك أن تنسخ مما أمرناهم به فقد سمحنا لك أن تُجري على قراراتنا تغييرا (6) قل لعبادي الذين آمنوا إن تثاءبوا يستعيذوا بالرحمن أن لا يضحك منهم الشيطان وليكبّروا الله إن عطسوا تكبيرا (7) وأن لا يقتنوا في بيوتهم كلباً ولا يضعوا على حيطانهم تصويرا (8)...".

ولا يحتاج هذا "الخليط" العجيب، الذي هو أشبه بمحاولة مزج الزيت بالماء، إلى عناءٍ كبيرٍ، حتّى من المبتدئين، لتمييز صحيحه القرآنيّ من زائفه البشريّ.

سأحاول تقريب الصورة أكثر. لو حدث أن استضافك صديقٌ في بيته، فكان فيما قدّمه لك نوعٌ من الخبز لم تذق في مثل طيبته من قبل، فسألته عن سرّ مذاقه اللذيذ فقال: إنّ الملح الذي وضع في هذا الخبز ليس ملحاً عاديّاً، وإنّما هو جذور مادّةٍ عشبيّةٍ نادرة يؤتى بها من أحد الأصقاع النائية في جزر القطب الجنوبيّ، ولا بدّ من حفر ما لا يقلّ عن عشرين متراً في أعماق الجليد للوصول إلى جذور تلك المادّة.

---

(12) الفرقان الحق:
- Al Saffee and Al Mahdy. *The True Furqan*. Wine Press and Omega, 2001.

لا شكّ في أنّك ستعجب كثيراً عند سماع هذه الحقيقة، ولكنّ عجبك سيتضاعف عندما يخبرك صاحبك أنّ الماء الذي عُجن به الخبز ليس ماءً عاديّاً، وإنّما هو قطراتٌ من ندىً جُمعت بعنايةٍ فائقة من على سطح أوراق شجرٍ نادرٍ لا يوجد إلّا في بعض أدغال إفريقية المنقطعة، ولا يمكن جمعها إلّا في أيّامٍ محدّدةٍ من أيّام السنة تزدهر فيها هذه الأوراق بحيث تكون قادرةً على تجميع تلك القطرات، ثم تختفي حتى العام القادم.

وسيفيض عجبك وحيرتك أكثر فأكثر لو استرسل صاحبك شارحاً: أمّا الطحين الذي صُنع منه الخبز فمأخوذٌ من بقولٍ عجيبةٍ، غير القمح، لا تنمو إلّا في أعماق الثلوج، ولا تنبت إلّا في أعالي جبال همالايا.

وسيبلغ عجبك ثمّ إعجابك ثمّ ذهولك وانبهارك الغاية عندما يخبرك صاحبك في النهاية أنّ الطريقة التي حُضّر بها الخبز غير الطريقة التقليديّة، وأنّ الفرن الذي خُبز فيه غير الفرن الذي نعرفه، والوقود الذي أوقد عليه غير الوقود، والصانع غير الصانع، و.. و..

مثل هذا تماماً ما ستكتشّف لك في هذا البحث، طبقةً فوق طبقةٍ ومرحلةً إثر مرحلة، من جدّة لغة القرآن، سطوحها وأعماقها، وأسرار هذه الجِدّة، أو بعض ما استطعنا الوصول إليه من هذه الأسرار التي تكمن وراء خصوصيّة طعمها، ولذّة مذاقها، وصمودها المستمرّ مع الزمن أمام كلّ محاولات التقليد والتزييف الباهتة والعنيدة والمستمرّة إلى يومنا هذا.

إنّ التجديد يغلّف ثنايا هذه اللغة ومنعطفاتها، ويكوّن نسيجها الخاصّ، فيتخلّل لُحمتها وسَداها، وقد اعترف كلّ من "ذاقها" من النقّاد والبلغاء والأدباء واللغويين بلذة طعمها وجمال صياغتها ودقّة عبارتها، وحاولوا، بنجاحٍ وبساطةٍ وصدقٍ أحياناً، وبكثيرٍ من التكلّف والاعتساف أحياناً أخرى، أن يضعوا أيدينا على مواضع هذا الجمال ويسوّغوا لنا مذاقه، ولكنّهم لم يُدخلوا نسيجَه اللغويّ إلى مخابرهم ليكتشفوا المصادر غير العاديّة والمميَّزة لمادّته اللغويّة والتصويريّة والفكريّة، ويظهروا لنا المكوّنات الجديدة التي تدخل في بناء أجزاء هذه المادّة، ثم طريقة تَضامّ كلّ تلك الأجزاء بعضها إلى بعض ليتحقّق هذا الشكل الإعجازيّ النهائيّ للتعبير القرآنيّ.

النفوذ المحيِّر للبِنية الإيقاعيّة الجديدة لدى العرب:

كان الوحي في عيون العرب الذين عاصروا تنزّله بمثابة هبوط طبقٍ طائرٍ ضخمٍ أمام أعينٍ بدويّةٍ بدائيّة، بكلّ تعقيدات هذا الطبق وسحر صنعه وغرابة قطعه الدقيقة المتقَنة.

والأعجب من كلّ هذا أنّ العرب قد اعتادوا، كما اعتادت كلّ أمّة، ألّا يتقبّلوا الإيقاع التعبيريّ، شعراً ونثراً، إلّا فيما تعوّدته آذانهم من سبائك وصيغٍ وتراكيب لغويّةٍ تتردّد هي ذاتها عند الأجيال من الكتّاب والخطباء والشعراء، فلو خرج أحدهم عنها لأحسّوا نشازاً إيقاعيّا يؤذي آذانهم، ثمّ لن يألفوا هذا النشاز إلّا إذا تكرّر مع مرور السنين ليصبح بعد ذلك عضواً معترفاً به في نادي إيقاعاتهم اللغويّة.

ولكنّهم، ويا للدهشة، لم يحسّوا هذا النشاز وهم يواجهون أوّل مرّة تلك الحشود المكثّفة من المستجدّات اللغويّة والنحويّة والتعبيريّة المتتابعة في القرآن، التي ستبني في نفوسهم وأسماعهم بالضرورة، من خلال تجمّعاتها المتلاحقة الفريدة، بسرعةٍ لا سابقة لها، قاموسَها الإيقاعيّ المتميّز الجديد.

وعلى العكس، كان ما شدّهم إلى القرآن، منذ اللحظات الأولى لنزوله، إيقاعُ لغته وموسيقا ألفاظه وعباراتِه، الداخليّةُ منها والخارجيّة، والجديدةُ تماماً على العربيّ، لكنِ المقبولة، بل المستحبّة، بل المحيِّرة حتّى لبلغاء المشركين، وهم الذين لم يملكوا حين سمعوه إلّا أن قالوا على لسان كبيرهم الوليد بن المُغيرة - الذي رفض أن يُسْلِم مع ذلك - :

واللهِ ما فيكم رجلٌ أعلمُ بالأشعارِ منّي، ولا أعلَمُ برَجَزِه، ولا بقصيدِهِ منّي، ولا بأشعارِ الجِنّ، واللهِ ما يُشْبهُ الذي يقولُ شيئاً مِن هذا، وواللهِ إنّ لِقولِه الذي يقولُ حلاوةً، وإنّ عليه لَطُلاوةً، وإنّه لَمُثمرٌ أعلاه مُغْدِقٌ أسفلُه، وإنّه لَيعلو وما يُعلَى، وإنّه لَيَحْطِمُ ما تحتَه[13].

(13) الحاكم، محمد بن عبد الله النيسابوري. **المستدرك على الصحيحين**. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، 1410هـ، ج2، ص550. =

رحلتي في آلة الزمان:

كم تساءلت فيما بيني وبين نفسي: تُرى هل هناك آلةٌ تستطيع أن تسبح بي في فضاء الزمان لتعبر بي أربعة عشر قرناً إلى الوراء فأستطيع سماع القرآن بأُذُن العربيّ الأوّل وكأنّني أسمعه، كما سمعه هو، أول مرة؟ هل أستطيع التجرّد من ذاكرتي القرآنيّة، بل الإسلاميّة، وأتصوّر أنني ذلك الجاهليّ الذي عاش عصر الوحي، وسمع القرآن وهو يتنزّل آيةً بعد آية، فتلتقط أذناه عذريّةَ التعبير القرآنيّ، وهما ما تزالان بريئتين من التعوّد والتكرار والألفة التي تحجب عنهما عبقريّة هذا التعبير وجدّته وتفرّده؟

تأمّلوا معي المشهد التالي لتروا كيف يجسّم لنا صورةً عن تلك المشاعر العجيبة التي استيقظت عند الصحابة الكرام حال وفاةِ الرسول الكريم وانقطاعِ الوحي من السماء:

عن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال أبو بكرٍ لعمر رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله ﷺ: انطلق بنا إلى أمّ أيمن رضي الله عنها نزورُها كما كان رسول الله ﷺ يزورها. فلمّا انتهيا إليها بكت، فقالا لها: ما يُبكيك؟ أما تعلمين أنّ ما عند الله تعالى خيرٌ لرسولِ الله ﷺ؟ فقالت: إنّي لا أبكي أنّي (أي لأنّي) لا أعلم أنّ ما عند الله تعالى خيرٌ لرسول الله ﷺ، ولكنْ أبكي أنّ الوحي قد انقطع من السماء. فهيّجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها[14].

الله.. أيّة تجربةٍ رائعةٍ عاشها المسلمون الأوائل وهم يتلقّون الوحي من السماء أوّل مرّة؟! أيّة نشوةٍ أحسّوا بها وهم يسمعون رأي السماء في كلّ أمرٍ يَعرِض لهم في حياتهم، ويستقبلون، بالبثّ المباشر وعلى الهواء، أحكامها التي لا تقبل الجدل أو الشكّ، على ما يجري لهم من أحداثٍ يوميّة، وما

= وانظر أيضاً:
- البيهقي، **شعب الإيمان**، مرجع سابق، ج1، ص156.

راجع الروايات والمواقف الأخرى للمشركين من القرآن في عدّة مواضع من كتاب: الزايد، سميرة. **الجامع في السيرة النبويّة**. دمشق: المطبعة العلميّة، 1995.

(14) القشيري، مسلم بن الحجاج النيسابوري. **صحيح مسلم**. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت.)، ج4، ص1907.

obeikan.com

يترتّب على هذه الأحكام من تبرئةٍ أو إدانةٍ أو وعدٍ أو وعيدٍ لأناسٍ يعيشون بينهم ويتحرّكون أمامهم ملء السمع والبصر؟!

بل كيف تلقّوا حديث السماء وهو يدخل بهم كلّ يومٍ وكلّ ساعةٍ خضمّاً مذهلاً من العوالم التي لا تكاد تتحمّلها عقولهم.

حتّى رسول الله ﷺ نجده وقد هزّه الوصف الهائل للأسرار الكونيّة والإلهيّة التي يتنزّل بها جبريل عليه فتهيج عواطفه ودموعه:

عن عائشة رضي الله عنها أنّ بلالاً أتى النبيّ ﷺ يؤذِنه لصلاة الصبح فوجده يبكي، فقال: يا رسول الله ما يُبكيك؟ قال: وما يمنعني أن أبكي وقد أُنزل عليّ هذه الليلة ﴿إنّ في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ لآياتٍ لأُولي الألبابِ﴾ ثمّ قال: ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكّر[15].

ومن روح هذا المشهد النبويّ العجيب حاولوا أن تستحضروا معي وقْع مثل هذه الآيات التالية على ذهن العربيّ الأوّل وهو يتلقّاها لأوّل مرّة:

﴿وما قَدَروا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ والأرضُ جميعاً قَبْضَتُه يومَ القيامةِ والسمواتُ مَطْويّاتٌ بيمينِه سبحانَهُ وتَعالَى عَمّا يُشْرِكون. ونُفِخَ في الصُّوْرِ فصَعِقَ مَن في السمواتِ ومَن في الأرضِ إلّا مَنْ شاءَ اللهُ ثمّ نُفِخَ فيه أُخرَى فإذا هُمْ قيامٌ يَنظُرون. وأشْرَقَتِ الأرْضُ بنُورِ ربِّها ووُضِعَ الكتابُ وجِيءَ بالنبيِّين والشُهداءِ وقُضِيَ بالحقِّ بينَهمْ وهمْ لا يُظْلَمون﴾ [الزمر: 67-69].

فهل لبشرٍ أن يستعيد بخياله تلك اللحظات النورانيّة التي فجّرت في نفوس المسلمين الأوائل ما فجّرته، من قوّةٍ وإيمانٍ وثقةٍ وتصميم، بنَوا بها حضارةً غيّرت وجه التاريخ؟!

لقد استعنتُ بهذه الآلة البشريّة القاصرة لأستعيد تلك اللحظات، ساحباً قرصَ الذاكرة القرآنيّة من حاسوبٍ دماغي، لأدفع مكانه بقرصِ الذاكرة الشعريّة

(15) رواه ابن حبّان في صحيحه بألفاظ قريبة، انظر:
- البستي، محمد ابن حبّان. **صحيح ابن حبّان بترتيب ابن بلبان**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط2، 1993، ج2، ص386، حديث رقم 620.

الجاهليّة، ثمّ بقرصِ ذاكرة الحديث النبويّ، وهما المصدران شبه الوحيدَين وشبه المؤكَّدين لتكوين صورةٍ عن اللغة التي كانت توازي أو تواكب زمنياً لغةَ القرآن في تلك الحِقبة.

ولكنّني لم أنسَ أن أضع بعض التحفّظ أمام صحّة رواية الشعر الجاهليّ عامّةً، وأسماءٍ معيَّنةٍ منه بخاصّة، ولا سيّما حين تتشابه روح الأبيات مع روح الإسلام، تشابهاً لا يترك للباحث خياراً في إهمالها وإخراجها من قاموس الشعر الجاهليّ، ومن ثمّ من ساحة البحث أو الاستشهاد. واقرأوا معي هذه الأبيات التي تُنسب للحُصين بن حُمام الفزاريّ (ت10 ق.هـ):

أعـوذ بـربّـي مـن الـمُـخـزيـا	تِ يومَ ترى النفسُ أعمالَها
وخَفَّ الموازينُ بالكافرين	وزُلـزلـتِ الأرضُ زِلـزالَـهـــا
ونـادى مـنـادٍ بـأهـلِ الـقـبـور	فـهَـبّـوا لتُـبـرزَ أثـقـالَـهـــا
وسُعِّرتِ النارُ فيها العذاب	وكـان الـسـلاسـلُ أغـلالَـهـــا

فمَن يستطيع منّا، مهما كانت درجة إحساسه الأدبيّ أو مهاراته النقديّة، أن يصدّق أنّ هذه الأبيات التالية هي لشاعرٍ جاهليّ؟

بين المعجم القرآنيّ والمعجم الجاهليّ والمعجم النبويّ:

وبدهيٌّ، وأنا أحاول استكشاف الفروق اللغويّة والأسلوبيّة بين القرآن الكريم وكلٍّ من الشعر الجاهليّ والحديث النبويّ، أن أركّز على الشعر بخاصّة، ولديّ منه ما يزيد قليلاً على عشرين ألف بيت، هي ما أحصته الموسوعات الإلكترونيّة التي بين أيدينا حتّى الآن؛ أي ما يَعدل حجم القرآن الكريم تقريباً، أو يزيد، وإن كنّا نعلم أنّ ما ضاع من هذا الشعر مع الزمن ربّما كان أكثر ممّا وصل إلينا[16].

(16) كان جلّ اعتمادنا في توثيق الشعر الجاهليّ على (الموسوعة الشعريّة) الضوئيّة التي قام عليها المجمّع الثقافيّ في دولة الإمارات، بإصداراتها الأوّل (1998) والثاني (2000) والثالث (2003)، ويجب أن أسجّل هنا أنّني من غير هذه الموسوعة بشكلٍ =

obeikan.com

ومع هذه الشكوك التي تحيط بالشعر الجاهليّ، فإنّ أيّة دراسةٍ للإعجاز التجديدي للقرآن لن تستمدّ موثوقيّتها من صحّة هذا الشعر بقدر ما تستمدّها من تلمّس الفروق بين لغة القرآن الكريم ولغة الحديث الشريف، فالأحاديث النبويّة موازيةٌ زمنيّاً للغة الشعر الجاهليّ، وهي تستمدّها كذلك من تلمّس الفروق بين لغة القرآن ولغتنا البشريّة الأدبيّة أو اليوميّة، في الماضي وفي الحاضر.

ومع تحفّظنا على بعض قصائد الشعر الجاهلي، وتردّدنا في قبول كثيرٍ ممّا يُنسب إلى شعراء معيّنين، فإنّ هذا لا يعني تحفّظاً على الشعر الجاهليّ برمّته، كما فعل طه حسين مرّةً، مهتدياً في ذلك برأي المستشرق البريطانيّ مارغليوث، بل إنّ إثبات كتابنا هذا للفجوة اللغويّة الحاسمة بين الشعر الجاهليّ ولغة القرآن الكريم، ومن ثمّ إثبات جدّة لغة القرآن الكريم وموثوقيّتها، سوف يعني في النهاية أيضاً إثبات صحّة الشعر الجاهليّ وموثوقيّته، مستندين في ذلك إلى تميز لغته تميزاً تامّاً عن لغة القرآن الكريم، على تعايش اللغتين وتزامنهما الحميميّ.

إنّ وجود شخصيّة لغويّة خاصّة بالشعر الجاهليّ، متميّزةٍ عن لغة الرسول ﷺ الذي ولد وعاش في قلب الحقبة الجاهليّة، وكذلك وجود لغةٍ نبويّةٍ متميّزةٍ تماماً عن لغة كتابٍ ظهر في تلك الحقبة نفسها، وحمله إلينا الرسول نفسه، من غير أن تختلط اللغات الثلاث أدنى اختلاط، ما هو إلّا دليلٌ على موثوقيّة نصوص اللغات الثلاث كلّها: الجاهليّة، والنبويّة، والقرآنيّة؛ إذ لم تتسرّب المشارب الأسلوبيّة واللغويّة لأيٍّ من النصوص الثلاثة إلى أيٍّ من النصّين الآخرين، على حين تجد أساليب شعراء الجاهليّة تتشابه وتتداخل بحيث لا يكاد الدارس يفرّق تفريقاً جازماً وقاطعاً بين شاعرٍ وآخر من خلال الأسلوب أو الشخصيّة اللغويّة لكلّ شاعر.

= خاصّ، والموسوعات الضوئيّة الأخرى إلى جانبها بشكلٍ عامّ، ما كان لهذا البحث أن يصل إلى يقينيّته وموضوعيّته وشموليّته، جزى الله خيراً كلّ من أسهم في ظهور هذه الموسوعات إلى النور، وأعانهم على تصحيحها وتدارك أخطائها والخروج بها في القريب العاجل على أكمل وجه علميّ وموثّق.

حتّى إن تميز أحدهم على الآخرين بقوّةٍ أو ضعفٍ أو جزالةٍ أو رقّة أو بساطةٍ أو غموض، فإنّ ناقداً ما لن يجرؤ أن يقطع في أحكامه بأن هذه القصيدة لا بدّ أن تكون لفلانٍ الشاعر أو فلانٍ الآخر، بالقدر نفسه الذي يجرؤ فيه أحدنا، ناقداً كان أو قارئاً عاديّاً، على القطع في حكمه بأنَّ هذا قرآنٌ وهذا ليس قرآناً.

ومع أنّ لغة الحديث الشريف لا بدّ أن تكون قد تأثّرت بلغة القرآن الكريم، تأثّراً سطحيّاً قد لا يظهر في أكثر من 1% من النصّ النبويّ، فإنّ هذا التأثّر لم يغيّر من الطبيعة المتميّزة للأسلوب النبويّ الذي يختلف على نحوٍ أساسيٍّ عن الأسلوب القرآنيّ، ولذلك كان من الضروريّ أن أحرص على إبراز الفروق الأسلوبيّة واللغويّة بينهما أينما عثرت عليها، وهي فروقٌ جذريّةٌ وواسعة، لإبرازها وتوجيه أنظار بعض المستشرقين والمشكّكين إليها، ممّن اعتادوا أن يوجّهوا أصابع الريب إلى لغة الوحي وينالوا من سماويّتها ويتّهموا الرسول ﷺ أو غيره من معاصريه بوضعها.

أمّا ما استشهد به اللغويّون وأصحاب المعاجم من ألفاظٍ وتعبيراتٍ قرآنيّةٍ حاولوا أن ينفوا عنها جِدّتها، فقالوا إنّ العرب سبق أن عرفوها وجاءت في كلامهم قبل نزول القرآن، فليس من الموضوعيّة أن نعود إليها ونطمئنّ لصحّتها ولموثوقيّة قِدَمها بثقةٍ تَعدِل ثقتنا بلغة الحديث الشريف، وكذلك ثقتنا بلغة الشعر الجاهليّ، مع كلّ ما يحيط بهذا الأخير من إشارات استفهامٍ وشكوك، وما دخل الحديثَ الشريف من أحاديث وضعها أصحاب المصالح من ذوي النفوس الضعيفة، ولكنّ هؤلاء الوضّاعين، على أيّة حال، ينتمون إلى عصرٍ أو عصورٍ ليست بعيدةً جدّاً عن عصر الحديث النبويّ، ومن ثمّ تظلّ لغتهم، الموضوعة والمزيّفة، ممثِّلةً أيضاً للغة تلك العصور.

فالعرب المسلمون، حتّى البداة منهم، لا بدّ أن يكونوا قد تأثّروا أيضاً، ومنذ القرن الإسلاميّ الأوّل، باللغة القرآنيّة الجديدة، كيف لا وقد رضعوها، هم وآباؤهم وآباء آبائهم، مع حليب أمّهاتهم، ولا سيّما إذا تذكّرنا أنّ عمليّة جمع اللغة من ألسنة البداة لم تبدأ إلّا في القرن الثاني الهجريّ؛ أي بعد أكثر من قرنٍ من نزول القرآن الكريم، وبعبارةٍ أوضح: بعد ولادة ورحيل ما لا يقلّ

عن أربعة أجيالٍ توارثت لغة الوحي، بل لغة الحديث الشريف أيضاً، وعاشتها لغةً يوميّةً وعقيدةً وطريقة حياةٍ وتفكير.

كيف يمكن أن نصدّق أنّ هؤلاء البداة كانوا ما يزالون يحتفظون باللغة التي تكلّم بها الجاهليّون، وقد نشأوا، بوصفهم مسلمين، ونشأ آباؤهم وآباء آبائهم على لغة القرآن الكريم ولغة الحديث الشريف؟

نعم، من الممكن أن نفترض أنّهم ظلّوا بعيدين عن التأثّر بلغة الأعاجم الذين دخلوا الإسلام فأدخلوا معهم لحونهم وتأثيراتهم في لغة أهل الحواضر، ولكنّهم لم يكونوا يوماً بعيدين عن لغة القرآن الكريم التي كانت ملء أسماعهم وأفواههم وذواكرهم وحياتهم اليوميّة، وشاركت في تكوين ملَكاتهم اللغويّة منذ أن كانوا في أرحام أمّهاتهم ثمّ في أحضان آبائهم وبيئتهم الاجتماعيّة والثقافيّة.

ليس من حقّ أيّ لغويٍّ أن يستدلّ من لغة هؤلاء البداة على معرفة العرب الجاهليّين أو عدم معرفتهم للفظٍ قرآنيٍّ ما. لقد فقد هؤلاء، وقد تربّوا على لغة القرآن، حصانتهم الجاهليّة، ولم تعد لغتهم صالحةً للاستشهاد بها على أنّها تمثّل لغة عرب ما قبل القرآن الكريم.

الثورة اللغويّة الجديدة:

كيف قابل العرب اللغة الجديدة للقرآن الكريم وقد جاءهم بكلّ شيءٍ إلّا ما تعوّدوه من ألفاظٍ وتراكيب وأبنيةٍ لغويّةٍ، فتركهم في حَيرة، وربّما أصابهم بذهولٍ لم يُفيقوا منه إلّا مع مرور الوقت وتعوّدهم وائتلافهم لهذه اللغة الجديدة.

أرأيتم لو زرتم منزلاً عربياً، فقدّم لكم أصحابُه أنواع الأطعمة والأشربة اللذيذة فلم يكن بينها الشاي أو القهوة، ألا تقولون: ولكن أين فنجان القهوة أو الشاي؟!

لقد استضاف القرآن الكريم العرب على مائدته الجديدة، وأقبلوا عليه محمَّلين بتراثهم الأدبيّ واللغويّ العريق، فلم يجدوا فيه قهوتهم ولا شايهم.

إنّهم لم يجدوا لدى مُضيفهم ما اعتادوه من تقاليد الضيافة اللغوية: فلا الأشربة هي الأشربة، ولا الأطعمة هي الأطعمة، بل اختلف عليهم حتى التوابل والخبز والفاكهة والحلوى وترتيبُ المائدة ونوعيّة الصحون والملاعق والكراسي والأرائك والسجّاد واللوحات والأثاث وألوان الجدران والستائر والنوافذ والأبواب والعتبات..

وليس هذا فحسب، لقد اختلفت أشكال هذه الأشياء وألوانها ومواقعها داخل البيت، فهي تتجاور أو تتباعد، وتكبر أو تصغر، وتعلو أو تنخفض، وتتقدّم أو تتأخّر، وتأخذ ألواناً وأشكالاً بطريقةٍ تختلف تماماً عمّا عهدوه في منازلهم. كلّ هذا، وللعجب، من غير أن تُفقدهم تلك الجِدّةُ قدرةَ التكيّف مع هذه اللغة وائتلافِهم لها وانجذاب قلوبهم وأسماعهم إليها، بل اعترافِهم، مؤمنين ومكذِّبين، بتفوّقها وتفرّدها.

إذن، فالتغيير لم يطرأ على الألفاظ القرآنيّة وحدها، بل تجاوزها إلى علاقات هذه الألفاظ فيما بينها، ومواقعِها في سياقها، واستخداماتها، والعناصر والأعراف اللغويّة والنحويّة والخياليّة الجديدة التي تنتظمها، وكذلك الوحدات اللغويّة الكاملة التي تشكّلت في النهاية من تلك الألفاظ والعلاقات والأعراف. وهذا كلّه يفسّر تجاوُز عدد المواقع الإعجازيّة الجديدة في كلّ سورةٍ لعدد ألفاظ هذه السورة كما سوف نرى.

الحدود بين الأعراف والقواعد:

في هذه الثورة المفاجئة التي أحدثها القرآن الكريم في اللغة العربيّة، لا بدّ من التمييز بين "القاعدة" و"العُرف". فقد طال التجديد القرآنيّ الأعرافَ اللغويّة والنحويّة السائدة في الجزيرة العربيّة حين لم تكن قد أخذت بعدُ شكلَ قاعدةٍ شرعيّةٍ معترَفٍ بها. حتّى إن كانت هناك قواعد لغويّةٌ متعارَفٌ عليها قبل القرآن، وهذا أمرٌ قابلٌ جدّاً للنقاش، فإنّ الحدود بين الأعراف والقواعد اللغويّة كانت، ولا بدّ أن تكون، ما تزال متماهيةً ومتحرّكة، تماماً كرمال الصحراء العربيّة.

فما الفرق بين العُرف والقاعدة؟

obeikan.com

نستطيع أن نقول إنّ اللغة العربيّة كانت عشيّة نزول الوحي مجموعةً من التقاليد النحويّة والصرفيّة واللغويّة والبيانيّة، تواضع عليها العرب في جزيرتهم. بل إنّ هناك ما هو أخطر من ذلك، فقد كان لكلّ قبيلةٍ مواضعاتها اللغويّة الخاصّة المختلفة عن مواضعات القبائل الأخرى، ولم تكن هذه التقاليد قد اكتسبت شرعيّتها القواعديّةَ بعدُ، وهذه الحقيقة كانت عاملاً هاماً في سهولة تقبّل العرب للثورة اللغويّة الهابطة عليهم من السماء، بل عاملاً هامّاً في التفافهم حولها، وإعجابهم بها إلى حدّ الانبهار والاستسلام والارتماء في أحضانها الدافئة.

كان علينا بعد ذلك أن ننتظر عدّة عقودٍ من السنين قبل أن يظهر في الأفق أوائل الروّاد من العلماء الذين وضعوا الأسس لعلوم النحو والصرف والبلاغة والبيان، فحوّلوا بذلك أعراف العربيّة وتقاليدها إلى قواعد وقوانين صارمةٍ ما لبثت أن اشتدّ عودها وفرضت نفسها، عليهم وعلى الآخرين، بوصفها حدوداً لا ينبغي أن يتجاوزها اللاعبون على حلبة التعبير اللغويّ.

القرآن يمهّد لتحويل الأعراف اللغويّة إلى قواعد:

وهكذا نجد أن الحديث عن "القاعدة" قبل عصر القرآن هو بالأحرى حديثٌ عن العُرف، وأنّ القاعدة لم تصبح "قاعدة" إلّا بفضل الحركة اللغويّة التي ابتعثها القرآن الكريم في الجزيرة العربيّة وما حولها، وأدّت في النهاية إلى ظهور علوم اللغة بمختلف جوانبها، ومن ثمّ، إلى تحويل الأعراف اللغويّة، ذات الرمال الرخوة المتحرّكة، إلى قواعد صخريّةٍ صارمةٍ وثابتةٍ يصعب الخروج عنها.

وبكلمةٍ قصيرة: إنّ القرآن هو الذي فتح الباب على العرب للتفكير بوضع قواعد للغتهم، وقبل القرآن لم يكن هناك إلّا المادّة اللغويّة البِكر التي كانت تتداولها ألسنة القبائل العربيّة في الصحراء الكبيرة الممتدّة، والتي كانت تنتظر من يستقريها ويرصدها ويستنبط منها القوانين والقواعد التعليميّة المدرسيّة التي ستصبح بعد ذلك التخومَ اللغويّة الدوليّة والشرعيّة المعترف بها لتلك اللغة.

وإذا كان بعض المغرضين اليوم، سواءٌ جهلوا هذه الحقيقة أو أدركوها،

يهاجمون القرآن لخروجه في كثيرٍ من آياته على قواعد النحو العربيّ، فإنّ عليهم ألّا يتغافلوا عن حقيقة أن هذه القواعد، وقد وُضعت بعد القرآن، هي التي عجزت عن الإحاطة بقواعده فلم تستطع ترويضها وإدخالها إلى قفص قواعدها البشريّة، وأنهم، باعتراضهم على القرآن لمخالفته هذه القواعد، أشبه بمن يعترض على مصمّم أزياءٍ مشهورٍ خرج على الناس بزيٍّ جديد، فقيل له: لقد خرجتَ عن تصاميمك القديمة إلى تصميمٍ مختلفٍ وهذا مرفوض!

لقد أصبح القرآن الكريم، حال اكتمال تنزّله وجمعه، المصدرَ العربيّ المنهجيّ الأوّل للّغة العربيّة، فهو النموذج الذي وضعه المصمّم الأوّل للغة البشر، من داخل اللغة القديمة نفسها، فجاء بلغةٍ عملاقةٍ ذات تصميمٍ جديد ومؤهّلٍ لإيصالنا إلى إطارٍ قواعديٍّ ناضجٍ لهذه اللغة البِكر التي لم تكن قواعدها قد استقرّت بعد، ثمّ تأبى أقزامٌ قدراتنا البشريّة بعد ذلك إلّا أن تعترض وتقول: هذه ليست على مقياس لغتنا..

منهج الدراسة:

وأخيراً، لقد بدأتُ العمل في هذا البحث عام 1989 وليس معي إلّا ذاكرتي، إلى جانب مَلَكتي النقديّة التي تكوّنت خلال دراستي وتدريسي للشعر العربيّ، قديمه وحديثه، ثمّ دراستي للتفسير وعلوم القرآن الكريم، وكذلك عكوفي على الحديث الشريف، وقد درستُ معظم مجموعاته، المشهورةِ منها والأقلِّ شهرةً، فرُحتُ أحاول استنطاق كلّ ذلك في نفسي لسبر توقّعاتي "الفراغيّة" والخروج بأحكامي التي تظلّ، رغم كلّ شيء، غير قاطعةٍ ولا نهائيّة[17].

ولكنّ ما منّ الله به علينا في السنوات الأخيرة من فتوحات الموسوعات

(17) مصطلح (الفراغيّة) استعرته من علم (الهندسة الفراغيّة) الذي يتطلّب من المهندس استخدام خياله لتصوُّر بعدٍ ثالثٍ للأشكال المسطّحة بحيث تبدو له مجسَّمةً، وهكذا يقيم الكاتب جسراً جديداً في خياله بينه وبين القارئ يستحضره عليه ليخاطبه قبل أن يكتب، مثلما يقيم القارئ جسراً في خياله بينه وبين الكاتب يستحضره عليه قبل أن يقرأ ما كَتب، كما يقيم الناقد جسراً بينه وبين النص الذي يدرسه مستحضراً وقعه على البيئة والعصر اللذين وُضع فيهما. وقد بنيت على هذا المحور الفكريّ كتابي الأخير "مسلمون في مواجهة الإسلام، مسيحيّون في مواجهة المسيحيّة".

الضوئيّة والإلكترونيّة، وما نهَدَ له علماؤنا وباحثونا ليُدخلوا فيها مجموعات الحديث الشريف ودواوين الشعراء العرب، منذ الجاهليّة حتّى اليوم - على ما في هذه الموسوعات حتّى الآن من أخطاءٍ في التحرير والتحقيق - فضلاً عمّا ظهر من الموسوعات القرآنيّة والنحويّة المتعدّدة، كلّ ذلك جاء ليمنح أحكامي الظنّية الأولى مزيداً من المصداقيّة، وليمنحني المزيد من الثقة لمتابعة هذا البحث ونشره.

وقد حرَصتُ على وضع القارئ، ما استطعت، في إطارٍ بسيطٍ وواضحٍ من الشروح، مع الإكثار من الأمثلة المأخوذة من لغتنا اليوميّة، محاولاً بذلك تذليل ما يصعب شرحه من غوامض المواقع القرآنيّة الجديدة، وإبرازِ جدّتها ومخالفتها لما سبق من تقاليد وأعرافٍ كانت تَحكم اللسان العربيّ قبل القرآن.

وفي سبيل تحقيق هذه الغاية ابتعدت عن كلّ ما من شأنه أن يشدّ انتباه القارئ بعيداً عن السياق، حيث تجنّبت، ما استطعت، الإسراف في التعليقات والهوامش، وهي ظاهرةٌ تطبع اليوم مؤلّفات اللغويّين والنحويّين والمحقّقين، فكنت، على سبيل المثال، أذكر سند الحديث وروايته إذا كان هذا الحديث ممّا يعتمد عليه البحث في أفكاره ومنهجه ومنعطفاته الأساسيّة، ولكنّني أهملت ذلك حيثما استشهدت بلفظٍ أو تركيبٍ أو جزءٍ من الحديث لإظهار الفروق اللغويّة بين كلٍّ من التعبير القرآنيّ والتعبير النبويّ والتعبير البشريّ، ما دامت هذه الأجزاء لن تغيّر حكماً فقهيّاً أو شرعيّاً أو تاريخيّاً، وما دامت ليست أكثر من "أجزاءٍ" من أحاديث.

وسواءٌ جرت تلك الأحاديث حقّاً على لسان الرسول ﷺ أو كانت موضوعة، فإنّ هذه الأخيرة قيلت على الأغلب -كما سبق أن نوّهت- في مُناخٍ لغويٍّ عربيٍّ ليس بعيداً جدّاً عن عصر النبوّة، وهذا ما يهمّنا في بحثٍ لغويٍّ كهذا، وإن حرصتُ، قبل ذلك كلّه وبعده، على أن يكون معظم ما استشهدتُ به منها مأخوذاً من كتب الحديث المشهورة التسعة[18].

(18) أعني: صحيح البخاريّ، صحيح مسلم، سُنن أبي داود، جامع التِرمذيّ، سُنن النَسائيّ، سُنن ابن ماجَه، مسند أحمد، موطّأ مالك، وسُنن الدارميّ.

وسيلاحظ القارئ أنّي لم أقيّد نفسي، وأنا أتوجّه إليه بالخطاب في ثنايا الكتاب، بالصيغة التقليديّة المعتادة (المفرد المخاطب: أنت) بل كنت أتنقّل باستمرار بين صيغتي الجمع والمفرد (أنت وأنتم) مع علمي بإصرار المؤلّفين في خطابهم دائماً على التوجّه إلى "القارئ" وليس إلى "القرّاء" مع أنّ القرآن الكريم يتوجّه في معظم حديثه، إلّا ما يتعلّق منه بشخصٍ بعينه، إلى الجماعة دون الفرد (يا أيّها الناس، يا أيّها الذين آمنوا، وأطيعوا الله، ولا يغتبْ بعضُكم بعضاً..). ثمّ إنّ من شأن هذا التنقّل بين الفرد والجماعة أن يبتعث لدى القارئ شعوراً بالحركة والحياة ينأى به عن التعب أو الشرود بذهنه عمّا يقرأ.

لقد حاولتُ ما استطعت أن أدخل بالقارئ إلى هذه الأسرار القرآنيّة برفقٍ وأناة، فأُبرزُ كلّ ما أَدخَله القرآن في بنائنا اللغويّ من تغييرات، وقدّمت لهذه المستجدّات بشرحٍ عامٍّ ومفصّلٍ لطبيعتها وأنواعها يستغرق هذا القسم الأوّل من الكتاب، وأستمدّ شواهده من مختلف سوَر القرآن الكريم، مع إعطائي عنايةً خاصّة، في معظم فصوله، لإحدى أوائل السوَر نزولاً، ومن ثمّ أكثرها بكوراً في التصادم مع الأعراف اللغويّة العربيّة، وهي سورة (المدّثر)، بحيث غطّت معظمُ فصول هذا الجزء، فيما غطّته من الظواهر العامّة في مختلف سوَر القرآن، الجوانبَ اللغويّة والنحويّة والبلاغيّة المستجدّة في تلك السّورة[19].

ثمّ خصّصتُ القسم الثاني من الكتاب لتطبيق الظواهر التي درسناها في

---

(19) روى الشيخان عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، قال: سألت جابر بن عبد الله: أيُّ القرآن أُنزل قبلُ؟ قال: ﴿يا أيّها المدّثّر﴾ قلت: أو ﴿اِقرأ باسم ربِّك﴾؟ قال: أحدّثكم ما حدّثنا به رسولُ الله ﷺ: "إنّي جاورتُ بحِراء، فلمّا قضيتُ جواري نزلتُ فاستبطنتُ الوادي، فنظرتُ أمامي وخلفي وعن يميني وشمالي، ثمّ نظرتُ إلى السماء فإذا هو، يعني جبريل، فأخذتْني رجفةٌ، فأتيتُ خديجةَ فأمرَتْهم فدثَّروني، فأنزل اللهُ ﴿يا أيّها المدّثّر. قم فأنذِر﴾". ويعلّق منّاع القطّان على الحديث بقوله: (وأجيبُ عن حديث جابر بأنّ السؤال كان عن نزول سورةٍ كاملة، فبيّن جابرٌ أنّ سورة (المدّثّر) نزلت بكمالها قبل نزول تمام سورة (اقرأ) فإنّ أوّل ما نزل منها صدرُها). القطّان، منّاع. **مباحث في علوم القرآن**. مرجع سابق، 1998، ص60.

القسم الأوّل على سوَر القرآن الكريم واحدةً إثر أخرى، مؤْثِراً أن أَشرع بأكثرها تداولاً في عباداتنا وقراءاتنا اليوميّة، وهي السّوَر القصيرة، فبدأت بـ(الفاتحة) لأنتقل بعدها إلى آخر سوَر القرآن ترتيباً (الناس) ثمّ (الفلق) ثم (الإخلاص) وهكذا مرتدّاً بالدراسة إلى الوراء حسب الترتيب التراجعيّ للسّوَر.

وهذا المنهج، فضلاً عن أنّه يساعدنا على النظر بمنظارٍ جديدٍ إلى أكثر السور تردّداً في صلواتنا وحياتنا اليوميّة، من شأنه أيضاً أن يقرّبنا من التسلسل الزمنيّ لنزول السور، ومن ثمّ إلى حركة التطوّر التاريخيّ للّغة القرآنيّة وتطوّر استقبال العرب لها عبر فترة تنزّل الوحي على مدى ثلاثةٍ وعشرين عاماً، لأنّ معظم السور القصيرة، وليس كلّها، تنزّل في الفترة المكّية؛ أي في السنوات المبكّرة الأولى من الوحي.

وقد اخترتُ أن أبدأ دراستي لهذه السور بالوقوف عند الألفاظ والمصطلحات الجديدة في كلّ سورة، ثمّ أُتبع ذلك بالحديث عن الصياغة اللغويّة والعلاقات الداخليّة النحويّة والفكريّة والبيانيّة فيها، ثمّ أنتقل إلى السبائك اللغويّة القرآنيّة الجديدة، وأتوقّف بعد ذلك عند الألفاظ والعبارات ذات الأبعاد المتعدّدة، وهي أبعادٌ نحويّةٌ ومعنويّةٌ إضافيّةٌ لا تملكها الألفاظ والعبارات عادةً في لغتنا البشريّة، وهو ما يُخرجها من نطاق اللغة المسطّحة ويُدخلها في باب اللغة المجسّمة أو المنفتحة، وأنتهي بعد ذلك إلى الحديث عن جوامع الكلِم من العبارات القرآنيّة السائرة التي دخلت بعد نزول الوحي، أو هي مرشّحةٌ باستمرار لأن تدخل، معاجمَ لغتنا الأدبيّة واليوميّة.

ومع أنّني التزمت التزاماً بعيداً بمعاني الألفاظ أو الآيات كما رُويت عند المفسّرين، قدمائهم ومحدثيهم، فإنّي لم أحصر نفسي في محيط "الرواية"، ولا سيّما أنّ معطيات العصر وآفاق الثقافة الحديثة الواسعة تمنحنا فرصاً جديدةً هائلةً للدراية، ولإغناء فهمنا للقرآن، واكتشاف المزيد من معانيه وعجائبه التي لا تنقضي، كما أنبأنا حامل هذه الرسالة السماويّة العظيمة ﷺ، وهو أمرٌ ستظهر للقرّاء أهمّيته ودوره الكبير في ظهور هذا البحث أصلاً إلى الوجود.

لقد أساء كثيرون فهم مقولة "تفسير القرآن بالرأي" لدرجةٍ جمدت معها العقول، وتباطأت حركة ملاحقة الجوانب الإعجازيّة في القرآن لاكتشاف المزيد من هذه الجوانب، وتراجع التفكير والاجتهاد وحركة الإبداع عند المسلمين، وتوقّفت، من ثمّ، عجلة الحضارة الإسلاميّة عن الدوران، وما تزال.

ويحضرني هنا درسٌ في هذا الباب يسوقه لنا الأنباريّ في واقعةٍ جرت بين لغويّين عملاقين عاشا في القرن الهجريّ الثاني هما أبو عُبيدة والأصمعيّ. فقد "بلغ أبا عُبيدة أنّ الأصمعيّ يَعيب عليه تأليفَ كتاب "المجاز في القرآن"، وأنّه قال (عنه): يفسّر ذلك (أي القرآن) برأيه. فسأل عن مجلس الأصمعيّ في أيّ يومٍ هو، فركب حماره في ذلك اليوم، ومرّ بحلقة الأصمعيّ، فنزل عن حماره وسلّم عليه وجلس عنده وحادثه، ثمّ قال له: يا أبا سعيد، ما تقول في الخبز؟ قال: هو الذي نخبزه ونأكله، فقال له أبو عُبيدة: فسّرتَ كتابَ الله برأيك؟ قال الله تعالى: ﴿إنّي أراني أحملُ فوقَ رأسي خُبزاً﴾، فقال له الأصمعيّ: هذا شيءٌ بان لي فقلتُه، لم أفسّره برأيي. فقال له أبو عُبيدة: وهذا الذي تَعيبُه علينا: كلٌّ بان لنا فقلناه، ولم نفسّره برأينا. ثمّ قام فركب حماره وانصرف"[20].

وقد حرَصت، وأنا أخوض بالقارئ هذه الأرض الشاقّة البكر من المناجم اللغويّة للقرآن، أن تكون لغتي في متناول أكبر عددٍ من القرّاء، فأتجنّب ما استطعت مصطلحات النحويّين واللغويّين والبلاغيّين، إلّا ما وُفّقت إلى شرحه وإيضاحه للقارئ منها، وأتفادى طرائقهم ومسالكهم وشروحاتهم التي قد تُغلِق على القارئ العاديّ، وأتحدّث عن أعقد القضايا النحويّة واللغويّة والبيانيّة بأبسط ما استطعت من وسيلة، متجنّباً الخوض في المسائل شديدة التخصّص.

لم أشأ إذن لهذا البحث أن يكون للمتخصّصين واللغويّين والنحاة، وكان

(20) الأنباريّ، محمّد. **نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء**. تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: دار نهضة مصر، 1967، ص108-109.

obeikan.com

جلّ همّي أن أجعله قريب المتناول لكلّ من يقرأ العربيّة ويكتبها، فلا أتحوّل في هذا العمل إلى نحويٍّ متحذلق، أو لغويٍّ متشدّق، أو بلاغيٍّ متكلّف.

ومع هذا فأنا أنصح أولئك الذين لا صبر لهم على لغة النحويّين وفلسفتهم الفكريّة ومفرداتهم الغريبة بأن يتجاوزوا عند قراءتهم للقسم التطبيقيّ من هذا البحث تلك الفقرات التي جاءت في دراستي للسوَر تحت عنوان (السبائك القرآنيّة) لأنّها أكثر مواقع البحث تعرّضاً للعلاقات النحويّة بين ألفاظ القرآن، وتحليلاً لهذه العلاقات، وغوصاً بها في بعض الأحيان في سبيل إظهار التفرّد اللغويّ والنحويّ في بناء الجملة القرآنيّة، مع محاولاتي المخلصة والمستمرّة لتقريب لغتي فيها أيضاً من لغة القارئ العاديّ كما سبق أن وعدت.

وأجد نفسي مَسُوقاً إلى أن أنبّه باستمرار، وستجدونني أعود إلى التنبيه مرّةً أخرى وأخرى، إلى أنّ فصل أيّ موقعٍ تجديديٍّ في كلّ سورةٍ عن باقي المواقع قد يتسبّب في الإيحاء بأنّه قليلُ الأهمّية ولا يرقى للوصف بأنّه "معجز". إنّ الإعجاز الذي نتحدّث عنه لا يأتي إلّا من اجتماع هذه النقاط جنباً إلى جنب، وبهذه الكثافة المثيرة، في كلّ سورة من سوَر القرآن الكريم.

وكثيراً ما كنت أنزلق أنا نفسي، في أثناء إعداد البحث، إلى مثل هذا التردّد والشكّ، فأتساءل وأنا أقف أمام أحد المواقع: وهل هذا كافٍ ليجعل من هذا الموقع إعجازاً؟ ثمّ أعود إلى وعيي فأتذكّر أنّ حقيقة الإعجاز هي في كثافة هذه المواقع وتجاورها وتلاحمها وتداخلها بعضها في بعض ضمن كلّ سورة، وأنّ النظر إلى أيّ موقعٍ منها خارج هذه الدائرة من شأنه أن يُفقده ثقله الإعجازيّ ويعيده إلى مجرّد إتقانٍ وبلاغةٍ وفصاحة، وهو ما يَخرج بنا عن دائرة هذا البحث، ويُدخلنا في المتاهات البلاغيّة التي دخلها الأقدمون ممّن كتب في الإعجاز القرآنيّ.

إنّ الهدف النهائيّ من هذه الدراسة هو أن نضع أيدينا ما استطعنا، وبقدراتنا البشريّة المحدودة، على البصمات الجديدة التي تركها الوحي على لغتنا العربيّة، وسيكون همّنا إذن منصبّاً على الإجابة عن سؤالٍ واحدٍ: أين الجديد في لغة الوحي؟ وماذا أضافت هذه اللغة إلى قاموسنا؟ ثمّ ننتقل بعد

ذلك إلى البرهنة على أصالة هذا الجديد.

وعلى هذا، فلن يكون في البحث مكانٌ للتحليلات اللغويّة والنحويّة والصرفيّة التي لا تخدم هدفه الأساسيّ ولا تساعد في الإجابة عن السؤال الهامّ الذي هو محور دراستنا.

ومع ذلك فأنا واثقٌ من أنّ القارئ سوف يخرج من الكتاب في النهاية وقد غدا نحويّاً أو لغويّاً صغيراً، ومن أنّ هذا البحث سيفتح أمامه آفاقاً لا حدود لها لإعادة قراءة القرآن الكريم بنظّاراتٍ جديدةٍ تمكّنه من أن يرى فيه ما لم يكن يراه قبل قراءته للبحث، بل ربّما أعانته على اكتشاف ما لم أكتشفه، أنا أو غيري، من آفاق الإعجاز القرآنيّ الخالد. مبتهلاً إليه تعالى أن يمنحني من فسحة العمر ما يمكّنني من دراسة المزيد من أجزاء كتابه المعجز.

ومع ثقتنا الأكيدة بريادة هذا العمل الذي نُقْدم عليه، متحرّرين من قيود التعتيم التاريخيّ الطويل على حقيقة التجديد اللغويّ في القرآن الكريم، لا بدّ من التأكيد باستمرار على الحقيقة التي لا ينبغي لباحثٍ حصيفٍ أن يُغفلها، وهي أنّ أيّ تفسيرٍ بشريٍّ للقرآن، أو تحليلٍ لغويٍّ، أو كشفٍ إعجازيٍّ بلاغيٍّ أو لغويٍّ أو علميّ، مهما اتّخذت من أشكالٍ وأساليب موضوعيّة، تبقى في حدود الترجيح وتخضع لاحتمالات الخطأ البشريّ. وكلّ ما نأتي به في هذا السبيل إنّما هو محاولاتٌ مخلصةٌ للاقتراب من الحقيقة المطلقة، التي نجد أنفسنا في النهاية عاجزين عن الوصول إليها ما دمنا نتعامل مع اللانهائيّ وغير المحدود من الإعجاز الإلهيّ بقدراتنا البشريّة الضعيفة والقاصرة والمحدودة.

وإنّ في كلمة أبي بكرٍ رضي الله عنه لَعظةً لكلِ باحثٍ في القرآن أو مستكشفٍ لأسرار معجزاته وآياته حين سُئل عن قوله تعالى ﴿وفاكهةً وأبّا﴾ فقال: "أيُّ سماءٍ تُظِلُّني، أو أيُّ أرضٍ تُقِلُّني، إنْ أنا قلتُ في كتابِ الله ما لا أعلم"[21].

(21) ابن ابي شيبة، عبد الله بن محمد. **المصنف في الأحاديث والآثار**. تحقيق: كمال يوسف الحوت، الرياض: مكتبة الرشيد، 1409هـ، ص136، حديث رقم 30103.

openkan.com